كتاب الأمة

سلسلة دورية تصدر كل شهرين عن وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية - قطر

العدد : ١١٥ رمضان ١٤٢٧هـ السنة السادسة والعشرون

الدعاء

سبيل الحياة الطيبة

د. سعاد الناصر

سعاد الناصر

* دكتوراه الدولة في الآداب.
* تعمل أستاذة التعليم العالي بكلية الآداب، تطوان.
* ترأس تحرير جريدة (ملامح ثقافية).
* لها عدد من الكتب والأبحاث المنشورة، من بينها:

- إيقاعات في قلب الزمن (مجموعة قصصية).
- بوح الأنوثة.
- ديوان (سأسميك سنبلة).
- لها محاضرات ومشاركات عديدة داخل المغرب وخارجه.

كتاب الأمة

سلسلة دورية تصدر كل شهرين عن وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية - قطر

ص . ب : ٨٩٣ . الدوحة . قطر

من شروط النشر في السلسلة

- أن يهتم البحث بمعالجة قضايا الحياة المعاصرة، ومشكلاتها، ويسهم بالتحصين الثقافي، وتحقيق الشهود الحضاري، وترشيد الأمة، في ضوء القيم الإسلامية.
- أن يتسم بالأصالة، والإحاطة، والموضوعية، والمنهجية.
- أن يشكل إضافة جديدة، وألا يكون سبق نشره.
- أن يُوثق علميًا، بذكر المصادر، والمراجع، التي اعتمدها الباحث مع ذكر رقم الآيات القرآنية، وأسماء السور، وتخريج الأحاديث.
- أن يبتعد عن إثارة مواطن الخلاف المذهبي، والسياسي، ويؤكد على عوامل الوحدة والاتفاق.
- يفضل إرسال صورة عن البحث، لأن المشروعات التي ترسل لا تعاد، ولا تسترد، سواء اعتمدت أم لم تعتمد.
- ترسل السيرة الذاتية لصاحب البحث.
- تقدم مكافأة مالية مناسبة.

هذا الكتاب.. الذي يأتي بمناسبة شهر رمضان، يعتبر محاولة لتأصيل معاني عبادة الدعاء، والتذكير بأهميتها ودورها في النفس والمجتمع، وتحقق التلازم والارتباط والتكامل بين البعد الروحي والبعد المادي.. إنه يمثل الحس الصادق لمعادلة النفرة لبناء الحياة الطيبة، في ميادينها المتعددة، وخاصة عندما يشتد فيها الكرب، ولا يبقى ملجأ ولا منجى من الله إلا إليه.

ذلك أن الدعاء إنما شرع، والله أعلم، ضمن إطار عمليات تحديد العزيمة، وشحذ الفاعلية، وإعادة التوزان المفقود لعالم الإنسان.. هو تجدد للمسؤولية، واستشعار لها، وتجديد للعهد أمام الله سبحانه وتعالى، واعتراف بالنعم، وشكر عليها، أو هو بكلمة مختصرة: انعتاق من الحال الصعبة، وانفساح في الآمال والرجاء، للارتقاء في مدارج الكمال، وإتقان الأعمال، للوصول إلى الأسمى.. هو فرار إلى الله للتزود بالطاقة والعود لمعركة الحياة بهمة أزكى وأقوى.

ولعل شهر الصيام، شهر المراجعة والتوبة والفرار إلى الله يمثل الوعاء الأهم والمناخ المناسب لاستشعار قبول الدعاء، حيث تفتح أبواب الجنة وتغلق أبواب النار وتصفد الشياطين، ولا شك أن مجيء قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ (البقرة:١٨٦)، بعد فرضية الصيام، والرياضات التي يمنحها الصيام، ويقويها وينفخ فيها الدعاء الحيوية والروح، يعتبر مؤشراً واضحاً ويلفت النظر إلى أهمية الدعاء وآثاره العظيمة في هذا الشهر الكريم.

موقعنا على الإنترنت : www.Islamweb.net

البريد الإلكتروني: E. Mail:M_Dirasat@Islam.gov.qa

الدعاء

سبيل الحياة الطيبة

د. سعاد الناصر

الطبعة الأولى

رمضان١٤٢٧هـ

أيلول (سبتمبر) – تشرين أول (أكتوبر) ٢٠٠٦م

سعاد الناصر

الدعاء.. سبيل الحياة الطيبة

الدوحة: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ٢٠٠٦م.

١٤٤ص، ٢٠سم - (كتاب الأمة، ١١٥)

رقم الإيداع بدار الكتب القطرية: ٢٠٠٦/٥٧٤

الرقم الدولي (ردمك): ٩٩٩٢١-٨٠-٠٧-٢

أ. العنوان ب. السلسلة

موقعنا على الإنترنت : www.Islamweb.net

البريد الإلكتروني: E. Mail: M_Dirasat@Islam.gov.qa

يقول تعالى:

﴿ قُلْ مَا يَعْبَؤُا۟ بِكُمْ رَبِّى لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ ۖ ﴾

(الفرقان:٧٧)

كتاب الأمّة

سلسلة دورية تصدر كل شهرين عن وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية - قطر

تهـدف إلى:

* العـودة بالأمـة إلى الكتاب والسنة، ومعـالجة أسـباب الغلو والتشدد.
* تأصيل الـرؤية الشـرعية للقضـايا والمشكلات المعاصرة.
* تجديد أمـر الـدين، ونفـي نـوابت السـوء.
* إحياء مفهوم فـروض الكفاية، وبيـان أهمية التخصص.
* التعريف بأهم مقومات النهوض، ومعالجة أزمة الحضارة.
* إعـادة تشكيل العقـل المسلم في ضوء معرفة الوحي.
* إبـراز دور الطـائفة القـائمة عـلى الحـق.



ربع قرن من العطاء



تقديم

عمر عبيد حسنه

الحمد لله الذي جعل عبادة الصيام فرصة متألقة للفرار إلى الله والاغتسال من الذنوب والتطهر من الآثام وطريقاً لبناء النفس، ووسيلة لتربية قوة الإرادة وتحكمها بضغط الشهوة وتهيئة مناخ التسامي الغريزي أو التصعيد الغريزي، وتحقيق الوقاية الشخصية، والممانعة الحضارية، فقال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (البقرة:١٨٣)، وأعقب آيات الصيام بقوله: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِى وَلْيُؤْمِنُواْ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ (البقرة:١٨٦)، وبذلك تكون الحكمة والمقصد من شرعة الصيام الانعتاق من الآثام وتحصيل التقوى أو حصول التقوى، على مستوى الفرد والمجتمع والدولة والأمة، ذلك أن التقوى المتحصلة من الصوم وأن شريعة الصوم تقع ضمن وسائل الإعداد والاستعداد لمواجهة ظروف الحياة وإصاباتها وضغط الشهوات ودركاتها.

والصيام بحد ذاته هو جهاد، وأي جهاد؛ إنه جهاد النفس وبنائها، وتأهيلها لرحلة الحياة بكل أبعادها، وهو الجهاد الأكبر، لأنها مرتكز التغيير والارتقاء لتكون المقدمة الأساس والقاعدة الصلبة لمشروعية مواجهة

المعتدين، ومقارعة المتسلطين، والنصرة للمظلومين، لذلك جاءت فرضية الصيام سابقة لفرضية الجهاد في الإسلام، لذلك فلا غرابة في تأتي معاركنا وانتصاراتنا الكبرى في شهر رمضان.

والصيام، من بعض الوجوه، هو عكوف على النفس، وتخليصها من طغيان بعض الغرائز والشهوات، وتوفرها للمراجعة للأخطاء والتوبة منها، والترميم للإصابات، والعزم على استئناف حياة نشيطة نظيفة، والتحضير لما يتطلبه مناخ الصوم من التوبة والمراجعة وعملية التنقية والتطهير، من دعاءٍ يعيد ما فتر من التواصل والرقابة واستشعار القرب من القوة المطلقة القادرة على الاستجابة لكل شيءٍ خيِّرٍ ومشروع.

والصلاة والسلام على إمام المتقين وسيد المجاهدين، الذي رفع يديه إلى الله في غزوة بدر، بعد أن استكمل جميع الأسباب، طالباً من الله النصر لهذه العصابة التي تشكل أجنة الدعوة وخميرة النهوض، ذلك أن هلاكها قد يعني انتفاء العبادة في الأرض، وقد ألح في الدعاء حتى أجهد نفسه وقال له أبو بكر، رضي الله عنه، إشفاقاً: إنما تدعو سميعاً؛ الذي لفت النظر إلى أهمية مناخ الصوم في تنشئة الشخصية وحمايتها من تحكم الغريزة وضغط الشهوة والترفع عن الدناءات السلوكية، فقال عليه الصلاة والسلام: «**يَا مَعْشَرَ الشَّبَابِ مَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمُ الْبَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ، وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ، فَإِنَّهُ لَهُ وِجَاءٌ**» (أخرجه البخاري، كتاب النكاح)،

والوجاء هو تصعيد الغريزة والتسامي بها، وليس إلغاءها، وتحويل الاهتمام، واستشعار الرقابة، والشعور بالمسؤولية عن استقامة السلوك.

أما في مجال الترفع عن الدنايا والدناءات والمحرمات والإصابات الشخصية فيقول عليه الصلاة والسلام: «**مَنْ لَمْ يَدَعْ قَوْلَ الزُّورِ وَالْعَمَلَ بِهِ فَلَيْسَ لِلَّهِ حَاجَةٌ فِي أَنْ يَدَعَ طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ**» (أخرجه البخاري، كتاب الصوم)، ويقول: «...**إِذَا كَانَ يَوْمُ صَوْمِ أَحَدِكُمْ فَلا يَرْفُثْ وَلا يَصْخَبْ، فَإِنْ سَابَّهُ أَحَدٌ أَوْ قَاتَلَهُ فَلْيَقُلْ إِنِّي امْرُؤٌ صَائِمٌ**...» (أخرجه البخاري، كتاب الصوم)، إنها دورة في المجاهدة والترقي والتسامي، تتطلب الكثير من التواصل مع الله والدعاء له، والاستمساك بحبل الله المتين، والحرص على حسن الأداء للوصول إلى التقوى.

وبعد:

فهذا «**كتاب الأمة**» الخامس عشر بعد المائة: «الدعاء.. سبيل الحياة الطيبة» للباحثة الدكتورة سعاد الناصر، في سلسلة «**كتاب الأمة**» التي يصدرها مركز البحوث والدراسات في وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بدولة قطر، في سعيه الدائب لبناء البصيرة، وتشكيل الوعي، وتحقيق التقوى، والارتقاء بالمسلم إلى مرحلة الوقاية الحضارية، حيث يتقي فيرتقي، ليصير في مستوى إسلامه في مجال تربية «الذات» والعلاقة مع (الآخر) محل الدعوة، ويتحقق بالبصيرة التي تمكنه من التمييز بين الأمور

الملتبسة وامتلاك أهلية الفرقان، وممارسة الرشد والفلاح، يقول تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾ (الأنفال:٢٩)، ويقول: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ يَـٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَـٰبِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (المائدة:١٠٠).

ذلك أننا نعتقد - فيما نعتقد - أن عمليات التجديد والإحياء، إضافة لما تتطلبه من توفير التخصصات في الشعب المعرفية المتعددة، التي تمكّن من إدراك السنن والقوانين الإلهية في الأنفس والآفاق، وتحسن تسخيرها، ومغالبة قدر بقدر، الأمر الذي يتطلبه فقه النص، فقه (معرفة الوحي)، وفقه الواقع وهو الحال التي عليها الناس بكل مكوناتهم وعلاقاتهم، ومن ثم تحديد مجال الاستطاعة وما يتطلب من تكاليف وأحكام شرعية لمعاودة إخراج الأمة واسترداد فاعليتها وعافيتها، وعودة الوعي الغائب، وإبصار طريق الرشاد، ووضع المناهج والبرامج لإعادة الصياغة وتحقيق صبغة الله لأعمالنا وسعينا، تتطلب إبصار البعد الغائب ودوره في تحقيق التقوى، التي تتمثل في الوقاية النفسية والحضارية بشكل عام.

هذا البعد الغائب يتجلى، وإلى حد بعيد، بإعادة الحياة والروح للعبادات حتى تؤدي دورها في بناء الإنسان، أساس الحضارة، والعنصر الفاعل في انطلاقتها أو انطفائها، في سيادتها أو إبادتها، لأن العبادات بكل أنواعها وأشكالها هي الأدوات والوسائل التربوية ذات الأهداف العملية، التي تتوافق فيها الممارسة العضوية مع العملية النفسية لتأكيد العبودية لله

سبحانه وتعالى، وفي مقدمة تلك الأهداف تحقيق الانعتاق من مثبطات الدنيا، وتجاوز عثراقما، واحتمال إصاباقما، وعدم الانكسار أمام تحدياقما؛ إنها السبيل لاقتحام العقبة وتخليص الإرادة من الإحباط واليأس، وبناء الرغبة في الصمود والمواجهة والارتقاء، يقول تعالى: ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ۝ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب ﴾ (الشرح:٧-٨).

إلى ربك فارغب.. هذه الرغبة، هي التي تمنح الإنسان الحيوية والفاعلية، وتحول دون الانتكاس والسقوط، هي المفاعيل النفسية والاجتماعية والإنسانية لقيام الحضارة، واستمرار التوقد والتوهج والتصميم والفاعلية والمحاولة، حتى في أشد حالات المعاناة.

ولا نقصد بالعبادة، وفي مقدمتها الدعاء، وهو مُخُّ الْعِبَادَة وأرقى درجات العبودية واستشعار البشرية، تلك الصور والحركات والعادات، حيث الكثير من العبادات فقدت عطاءها ورواءها؛ لأنها تحولت إلى عادات وحركات مفرغة من مضموها وحكمتها، وحسبنا أن نختبر ذلك في أنفسنا وحالنا قبل ممارسة العبادة وبعدها، وإلى أي مدى نحس بالتغيير والتغير والارتقاء أو العودة إلى نفس مألوفنا ومعروفنا.

ولعل من الأمور الأساس التنبه إلى أننا لا نريد بالعبادة الصور والحركات والعبادات المعزولة عن النفس ومشكلاتها والحياة وقضاياها،

مكاناً وزماناً وعطاءً، والتي يمكن أن يضطلع بقيادتها بعض الذين ينسحبون من الحياة ويخرجون من المجتمع، يعيشون في غرف الانتظار، وبعيداً عن واقع الأمة ومشكلاتها ومعاناتها؛ حيث وصل الحال بنا، أو بالكثير منا، إلى عدم الحس بمدلول العبادة في نفسه وأثرها التغييري في حياته ومجتمعه؛ لأنها لم توضع في الموقع الصحيح، ولم يتعامل معها كما شرعت لبناء الحياة وتغيير واقعها، ابتداءً من الفرد وانتهاءً بالأمة، لم تعد تغتنم لتعبئة الطاقات وإثارة الفاعلية، حتى لقد وصل الأمر لدرجة صعوبة التفريق بين مسالك من يمارسها ومن يبتعد عنها أو ينكرها، والرسول ﷺ يقول: «**رُبَّ صَائِمٍ لَيْسَ لَهُ مِنْ صِيَامِهِ إِلا الْجُوعُ، وَرُبَّ قَائِمٍ لَيْسَ لَهُ مِنْ قِيَامِهِ إِلا السَّهَرُ**» (أخرجه ابن ماجه،كتاب الصوم)؛ إنها حركات تؤدى، وقد تكون مستكملة الناحية الفقهية، لكنها في الحقيقة فاقدة للروح والتأثير، ومن ثم التغيير المنشود وتحقيق الوقاية النفسية والاجتماعية.

لقد وصل الحال بنا اليوم، أو بالكثير منا، إلى أن تتحول العبادة إلى فقه فقط، نستكمل أحكام أدائها ونفتقد غايتها وحكمتها؛ لأننا لم نتعامل معها كما شرعت للتعبير عن حالة عقدية فكرية نفسية، ولم نحسن توظيفها لتعبئة الطاقات، وإنعاش الذهن، وإثارة الفاعلية، وتجديد العزيمة، وتحقيق الاطمئنان، وسكينة النفس، والإقلاع من جديد بخطوات واثقة صادقة.

ولعل أصدق مثال على ذلك ما نراه اليوم من صور ممارسة الدعاء، والدُّعَاءُ مُخُّ الْعِبَادَةِ، كما أسلفنا، بل العبادة كلها دعاء، وأقصى

حالات التذلل والعبودية، والحس بالبشرية والضعف والحاجة إلى الاستنجاد والاستمداد من القوة المطلقة القادرة على انتشالنا من كل معاناتنا والتجاوز عن كل أخطائنا وماضينا، وتحضيرنا للانطلاق بلا عوائق الحاضر وأثقال الماضي.

والدعاء في حقيقته وعلة تشريعه ليس هروباً من الحياة، ولا انسحاباً من قضاياها ومشكلاتها، ولا إلغاءً لهمومها وهممها، كما قد يتوهم كثير، ليس حالة سلبية، أو تجاوزاً للسنن والقوانين الإلهية وقفزاً من فوقها، وإنما هو تجديد لإبصارها، والإيمان بفاعليتها واطرادها، ورجاء امتلاك القدرة على تسخيرها، والوصول إلى القدرة على مغالبة قدر بقدر.

الدعاء قوة دافعة، ودرع واقية، حالة إيجابية تربوية وقائية، يمكّن لملكة التقوى في النفس، ويبصر بالفرقان المتولد منها وعنها ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا ﴾ (الأنفال:٢٩)، وحالة علاجية تعالج الإحباط والانكسار واليأس والعجز وانطفاء الفاعلية.. إنه تجديد للفاعلية، وشحذ للهمة، وإزالة للهموم، ومنح الثقة لتجاوز الحواجز والموانع والمعوقات، وتحقيق الاتصال المباشر مع القوة المطلقة، صاحبة العلم المطلق، والبوح لها بكل المعاناة.

إنه بوح واعتراف بالذنوب والإصابات، التي تعتري الحياة وتكدر صفوها، وندم وانكسار وتذلل أمام القادر على الإجابة، بعد استكمال الأسباب.

وقد يكون من أعظم نعم الله الأكرم، التي جاء بها الإسلام والتي حفظت كرامة الإنسان وإنسانيته وحالت دون الشر الكامن في تسلط الإنسان على الإنسان، وخلصت البشرية من شقوتها أن جعل الدعاء بين العبد وبين الرب بدون واسطة من بشر أو غيره، جعل الاعتراف بالذنوب أمام من يستر الذنوب ويعد المعترف بالعفو عنها والاستجابة لحاجة صاحبها، دون أن يفشي له سراً، بل قد يكون من مؤهلات الاستجابة الستر وعدم المجاهرة بالذنوب.

إن الدعاء اتصال مباشر في كل زمان ومكان، ولحظة وحالة مع القوة المطلقة القادرة على الاستجابة، وفي هذا ما فيه من المعاني التي وقف عندها طويلاً علماء التحليل النفسي المعاصرون، الذين يعتبرون أن البوح عما يعتلج في النفس والتفريغ للأحزان والآلام هو سبيل شفاء الكثير من الأمراض النفسية، وأن حالات الضعف والإصابة النفسية تستدعي البوح الذي يحقق الراحة النفسية للمريض، ويعيده إلى الحالة السوية ويسهم بشفائه، لدرجة قد نضل معها الطريق، لعدم الوضوح في الإيمان، فنذهب إلى الإيمان بالسحر والشعوذة والخوارق والأساطير والقديسين وما إلى ذلك.

فالإنسان خطاء بطبيعة خلقه، وأخطاؤه تطارده، وتثقل كاهله، وهو بحاجة إلى الخلاص من المعاناة، لذلك فإن هذه الحالة من المعاناة استُغلت كثيراً من بعض المخلوقين، من رجال الدين والكهنة، وانحرفوا بها ولعبوا بتوجهاتها الفطرية، وكم من الضحايا سقطوا نتيجة لابتزاز الكهنة

ورجال الدين في أموالهم وأعراضهم، حيث جعلت مسألة العفو والتجاوز والغفران منوطة ببشر يجلس من يريد غفران ذنوبه ويعترف أمامه على كرسي يسمى بكرسي الاعتراف، فيكشف مستوره حتى يتحول إلى رهينة بماله وعرضه لإنسان مثله، فيكون ذلك سبباً في التسلط عليه وابتزازه.

نعاود القول: بأن الإسلام جاء بأكبر نعمة على الإنسان، كانت السبب في حفظ كرامته وإنسانيته وحياته الطيبة، أن جعل الاتصال مع الله مباشرة وبدون وساطة في حالات الضعف والمعاناة، التي يكون الإنسان عندها مهيأ لقبول كل شيء، كما جعل الدعاء حصناً من السقوط، جعله علاجاً من الغطرسة والتجبر.

وقد تكون الإشكالية الأخطر هي الاقتصار في الدعاء على التوجه صوب الآخرة، على أهمية المصير كمحرك وموجه لمسارات الحياة وأنشطتها باتجاه الخير، لكن المشكلة أن يقتصر الأمر على عدم الإبصار من الدعاء إلا الغفران والفعل الأخروي من رجاء الثواب، الأمر الذي عزل الدعاء شيئاً فشيئاً عن الحضور في شؤون الدنيا وكأنما صار هناك فصل بين شؤون الدنيا ومهام الاستخلاف في الأرض وشؤون الآخرة بشكل عملي، ولذلك تحرك الدعاء صوب الآخرة وانسحب من الدنيا وقضاياها، فتحول من حالة إيجابية تمنح اليقين والثبات والعزيمة والنشاط والفعل المستقيم المثاب الذي يهوّن مصائب الدنيا والتعاطي معها، إلى صورة سلبية معطلة بعيدة عن

الشأن الدنيوي والانحباس عند الشأن الديني، بمفهومه الحسير، كشأن سائر الثنائيات الجدلية والخيارات، التي فرضت علينا من ثقافات الأمم السابقة وما نزال نعاني منها والتي دمرت العقل البشري تاريخياً وبقي أمامها حائراً؛ لأنه عاجز عن الاختيار والمقابلة والمعادلة بين قضايا صعبة من مثل الدنيا والآخرة، والجسم والروح، والدين والدولة، والعلوم التجريبية والعلوم الشرعية، وما إلى ذلك من الثنائيات.

فالدنيا هي معاش الإنسان والآخرة معاده، والجسم وسيلة الأداء ووعاء الروح، والروح وسيلة التسامي والتميز عن الحيوان، والدين فطرة الإنسان ووسيلة توجيه سلوكه وحمايته من السقوط، والدولة وسيلة إدارته وتحقيق مصالحه، والعلوم الشرعية مرجعيته ودليله وبوصلته إلى المعاد في الحياة، والعلوم التجريبية أدواته في الكسب والسعي والإنتاج وتحقيق المعاش وإقامة العمران.. وهكذا.

فالرؤية النصفية لمهمة الدعاء ومشروعيته انتهت بأصحابها إلى الانسحاب من الحياة، والعزوف عن الدنيا وتعاطي الأسباب وتسخير الكون، والاكتفاء برصف ألفاظ وتمتمات، ومعاودتها في كل الظروف والأحوال، ولو أدى ذلك إلى الانقطاع والعيش من إنتاج الآخرين والتحول بالإنسان من منتج ينفع عيال الله إلى مستهلك صاحب يد سفلى، من متصدق إلى محل للصدقة.

فالدين والعبادة بكل جوانبها وأبعادها، بما في ذلك الدعاء، إنما شرعت لحسن صناعة الدنيا وفق المنهج الصحيح السليم، الذي يمنح الحياة الطيبة ويبني سكينة النفس، ويعالج أزمات الإنسان، الموصل إلى الآخرة السعيدة.

فالرسول القدوة ﷺ شرع لنا من الأدعية المأثورة لحالات الحياة المتنوعة وإصابات الإنسان المتعددة، في مجالات الطعام والشراب، والنوم والاستيقاظ، والسفر، والزواج، وحتى الوطأ والنكاح، والعجز والفقر، والهرم، والهم، ولحوق المصيبة، وأثناء هجوم النعمة واندفاع النقمة، والتوبة، والحرب والسلم، وحفظ الصحة، واستمرار التمتع بالحواس، إضافة إلى ما شرع لمعالجة الكثير من الإصابات، وما يعين على التحمل والصبر والاحتساب وامتلاك القدرة على احتمال الظلم ومقاومته والصبر عند المكاره وإعداد العدة حتى ينجلي الأمر.. وهكذا.

وبذلك نجد في الدعاء المأثور لكل حالة يعاني منها المسلم أو يعيشها أو يقدم عليها دعاءً خاصاً يمثل حبل النجاة، الذي يمتد لينتشل الإنسان من همومه ومخاوفه، ويثبت قدمه على الطريق الصحيح، مهما كانت العقبات؛ وبذلك تميز المسلم بأنه إنسان إيجابي في كل الأحوال، في الضراء التي تستدعي الصبر، والسراء التي تقتضي الشكر.. وارتكازه إلى الله، القوة المطلقة القادرة على انتشاله من السقوط والارتقاء به، يمنحه التفاؤل والبشر وقوة الاحتمال، حتى في أحلك الظروف وأشد المكاره، فكل أمره له خير، يقول الرسول ﷺ: «**عَجَبًا لأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ**

لأَحَد إلاَّ للْمُؤْمنِ، إنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ» (أخرجه مسلم،كتاب الزهد والرقائق).

من هنا نعاود التأكيد: بأن الدعاء في الإسلام ليس رصف ألفاظ أو حفظ مفردات تجري على الألسنة أو تختزن في الذاكرة بدون تفاعل وانفعال بها، وإنما هو علاج، وتعبير عن حالة نفسية من التذلل والاستنصار، هو وسيلة شفاء، وتجديد، وإعادة ولادة للشخصية، ومحطة تعبئة للطاقات ليتابع الإنسان مسيرة الخير والاستقامة بلا هوان ولا تخاذل.

وإذا تأملنا الأدعية المأثورة بتنوعاتها، رأينا لكل دعاء حاجته البشرية، وحالته النفسية، وظروفه الحياتية، وعلى الأخص عند معرفتنا بأسباب الورود، ومناسبات المعاناة، والمناجاة بها.

ولا بد أن نؤكد أن الدعاء في بعده الصحيح، ليس عدة الكسالى والمتواكلين، والقاعدين، وليس مقابلاً للعمل والجهد واستنفاد الأسباب، كما هو حال الكثير منا اليوم، من الذي يقعدون عن طلب الرزق، ويقولون: **«اللهم ارزقنا»** دون تعاطي الأسباب، وهم يعلمون أن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة، فيصبح الدين في مثل هذا الفهم البئيس مخدراً، بدل أن يكون مستنفراً.

لقد شُوِّه مفهوم الدعاء، وغاب البعد الحقيقي له عن حياة المسلمين، وتحول في واقعنا ليصبح بضاعة الكسالى، ووسيلة القاعدين والهاربين من الحياة، لذلك أصبح كل دعاء يصح لكل حالة، وأصبح الدعاء رصفاً

للألفاظ - كما أسلفنا- بعيداً عن حالة المعاناة والرجاء لخالق الأسباب، بعد الإعداد واستنفاد الأسباب.

لقد كان الرسول القدوة ﷺ إذا أراد أمراً، استفرغ وسعه في اتخاذ الأسباب وإتقانها، لدرجة قد يظن الجاهل معها أن لا صلة له بالسماء، وبعد ذلك يتضرع إلى الله، ويجأر بالدعاء، الذي يعني طلب العون والمدد، وتفعيل الأسباب من خالقها وخارقها، ليتحول الدعاء إلى علاج لما يمكن أن يحتمل من العجز والتخاذل والقلق والإحباط، وتحريض للقدرات والطاقات، وترشيد للأسباب، وحسن تسخيرها، وضبط للأهداف، وارتباط دائم بالعبودية، حتى لا يغتر الإنسان بإنجازه، وحتى لا تشكل الأسباب حاجزاً سميكاً يحول دون رؤية خالق الأسباب ومسيرها.

أما دعاؤنا اليوم، في معظمه، فهو خروج من الحياة، ودخول في الفراغ.

لذلك يبقى المطلوب دائماً، التفكير بأبعاد الدعاء الغائبة، ومحاولة التربية على استردادها؛ لأنه وقود الانتصار والإنجاز، وحصن مانع من العجز والسقوط، وعلاج ناجع للتأزم والتبرم، والتأله، والاغترار بالقوة.

والكتاب الذي نقدمه، والذي قدر الله له أن يأتي بمناسبة شهر رمضان، يعتبر محاولة لتأصيل معاني هذه العبادة الإسلامية، والتذكير بأهميتها ودورها، علها تؤتي ثمارها في النفس والمجتمع، وتحقق التلازم والارتباط والتكامل بين البعد الروحي والبعد المادي.. إنه يمثل الحس

الصادق لمعادلة النفرة لبناء الحياة الطيبة، في ميادينها المتعددة، حيث تتأكد للقيام بمهمة الاستخلاف الإنساني، وخاصة عندما يشتد فيها الكرب، ولا يبقى ملجأ ولا منجى من الله إلا إليه.

ذلك أن الدعاء إنما شرع، والله أعلم، ضمن إطار عمليات تجديد العزيمة، وشحذ الفاعلية، وإعادة التوزان المفقود لعالم الإنسان.. هو تجدد للمسؤولية، واستشعار لها، وتجديد للعهد أمام الله سبحانه وتعالى، واعتراف بالنعم، وشكر عليها، أو هو بكلمة مختصرة: انعتاق من الحال التي نحن عليها، وانفساح في الآمال والرجاء، للارتقاء في مدارج الكمال، وإتقان الأعمال، للوصول إلى الأسمى.. هو فرار إلى الله للتزود بالطاقة والعود لمعركة الحياة أزكى وأقوى.

ولعل مناخ شهر الصيام، شهر المراجعة والتوبة والفرار إلى الله يمثل الوعاء الأهم والمناخ المناسب لاستشعار قبول الدعاء، حيث تفتح أبواب الجنة وتغلق أبواب النار وتصفد الشياطين، ولا شك عندنا أن سياق مجيء قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ (البقرة:١٨٦)، بعد فرضية الصيام، والرياضات التي يمنحها الصيام، ويقويها وينفخ فيها الدعاء الحيوية والروح، يعتبر مؤشراً واضحاً ويلفت النظر إلى أهمية الدعاء في هذا الشهر الكريم.

ولله الأمر من قبل ومن بعد.

مقدمة

الحمد لله الذي خلق الإنسان من مادة وروح، وجعل له القدرة على التمييز العقلي بين المعايير الإنسانية الضابطة للقيم والأفعال والسلوك، وبين معايرة مواقع الانفلات والتقصير في حياته وواقعه.

والصلاة والسلام على القدوة المهداة إلى البشرية، الذي اعتمد العقل وسيلة للتغيير وتزكية للنفس واستقلالاً للفكر، وعلى آله وصحبه وعلينا معهم إلى يوم الدين.

إن النفس البشرية المتميزة بأبعادها المختلفة وأعماقها المعقّدة الغامضة، لا يمكن إشباعها بالوسائل والحاجات المادية وحدها، مهما غالى الإنسان في توجهه المادي، وحرص على تلبية مطالبها الحسيَّة، وإشباع غرائزها الطبيعية؛ لأن «المادة وحدها غير قادرة على ضمان تدبير حياة الإنسان، وبث الطمأنينة في أعماقه، وهي عاجزة عن ضمان تأسيس أو الحفاظ على أي قيم أخلاقية في حياته»[1].. من هنا كان الشعور بإشباع جانبها الروحي ضرورة تلح على الإنسان كلما طغى الجانب

---

(١) محمد الكتاني، في المنظور الإسلامي، ط١ (دار الثقافة) ص ٢١.

المادي، واختل التوازن داخله، وأصبح الإحساس بالحاجة يتعاظم في نفسه كلما أظلمت، وتوترت العلاقة بين فطرته ومكتسبات ذاته من جهة، وبين ذاته والواقع المحيط به من جهة أخرى.

وهذه الحاجة، تتجلى واضحة حين ينغمس الإنسان في كثير من الأحداث والوقائع والأزمات التي لا يستطيع معرفة كنه أسبابها أو حل إشكالاتها، فيلجأ بفطرته إلى الله سبحانه، ويطلب منه العون على مواجهتها، والمساعدة على تيسير أسباب معالجتها أو تجاوزها، يقول تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ﴾ (يونس:١٢)، ويقول تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا۟ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ (الروم:٣٣)، ويقول تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا﴾ (الإسراء:٦٧).

إنه أمر متغلغل في الفطرة، يتساوى فيه الناس مهما كانت اتجاهاتهم وميولاتهم، والالتجاء إلى الله تعالى كلما ضاقت السبل، واشتد الظلام، ثم الإعراض عنه تعالى ساعة الرخاء. وعلاقة الإنسان بربه علاقة ذاتية متأصلة في نفسه، ولكلّ امرئ شعاع في قلبه يصله إلى خالقه، لأنه تعالى أوجد في طبيعة تكوين الإنسان استعداداً فطرياً لمعرفته وتوحيده، فالاعتراف بربوبية

الله وحده فطرة في الكيان البشري، فطرة أودعها الله الخالق في الكينونة الإنسانية، وشهدت بها على نفسها بحكم وجودها ذاته، وحكم ما تستشعره في أعماقها من هذه الحقيقة، فالتوحيد ميثاق معقود بين فطرة البشر، وخالق البشر، منذ كينونتهم الأولى)[1]. وقد أمر الله عز وجل في الآيات السابقة الناس كافة بالدعاء، واختص المؤمنين بهذا الأمر، مما يدل على أن أي إنسان مهما بلغت درجة إيمانه وتدينه واستقامته، لا يستغني عن الدعاء، فهي بداية السير إلى الله ونهايته.

ولعل أكثر ما يبحث عنه الإنسان العاقل في زمننا المعاصر، مهما كان تدينه أو توجهه، الطمأنينة والسلام مع نفسه ومع الآخرين، والإحساس الحقيقي بالحرية والكرامة. وأعتقد أنه لن ينعم بذلك إلا إذا اكتشف ذاته أولاً. ومرحلة اكتشاف الذات هي مرحلة خطيرة؛ لأنها ترسم مسار الإنسان في رحلته على الأرض، وتتطلب منه أن يوقظ نفسه من غفلتها أو جحودها، بمعنى أن يتوقف لفترة قد تطول أو تقصر عن مجاراة العالم المختل، ويحاول إعادة التوازن إليه من خلال نفسه، وإيجاد واقع عملي يحقق له ما يصبو إليه، ويضمن له الاستقرار؛ ولن يستطيع ذلك إلا إذا امتلك عقيدة صحيحة تفسر له ما حوله، وتفسر له مكان وجوده فيما حوله ووظيفة هذا الوجود.

من هنا كانت البشرية منذ نشأتها تحتاج إلى من يرشدها ويوجهها إلى طريق سعادتها بتزكية النفوس وتطهير القلوب وإقرار الخير

---

(١) سيد قطب، في ظلال القرآن، ٣/١٣٩١.

والصلاح في الأرض، واستشعار عظمة الله في كل ما يحيط بها وما يتوصل إليها. وكانت في كل مرحلة تجنح عن الحق وتنحرف نحو الفساد والطغيان يبعث إليها بدينه الحق، ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾ (آل عمران:١٩) عبر أنبيائه ورسله لتصحيح العقيدة، ومعالجة مختلف الأمراض الأخلاقية والاجتماعية والاقتصادية وغيرها الموجودة في بيئاتها، يقول تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾ (النحل:٣٦) ويقول عز شأنه: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴾ (الأنبياء:٢٥). وكانت آخر الرسالات رسالة محمد ﷺ التي جاءت إلى الإنسانية كلها تؤكد الأسس الإيمانية التي جاءت بها الرسالات السابقة، يقول تعالى: ﴿ ۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ ﴾ (الشورى:١٣).

ولهذا كان الإسلام يعرض لقضية البشرية من نشأتها إلى غايتها، ويدعوها إلى تصحيح عقيدتها بوحدة إيمانها بالله عز وجل، يقول تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ۚ ﴾ (المائدة:٣) .

وتمثل مرحلة البعثة الإسلامية أزهى المراحل التي بلغت فيها البشرية قمة الارتقاء الإنساني، ممثلة في رسول الله ﷺ القدوة والنموذج للكمال والصلاح، ثم في أصحابه، رضي الله عنهم وأرضاهم. حيث كانت علاقاتهم بربهم علاقة متناغمة مع الكون ومع وظيفة وجودهم ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (الذاريات:٥٦).

فالعبادة إذن جوهر الوجود الإنساني، وهي تستلزم التوجه إلى الله تعالى بالطلب والدعاء. والدعاء لغة هو النداء[1]، تقول: دعوت فلاناً أدعوه دعاءً، أي ناديته وطلبت إقباله، وأصله دُعاوٌ ، إلاّ أنّ الواو لّما جاءت بعد الألف هُمزت.

وللدعاء في القرآن الكريم وجوه عدّة، تدور حول المعنى اللغوي المتقدم، كما تقدم معاني أخرى، من هذه الوجوه قوله تعالى في معنى النداء: ﴿فَقُلْ تَعَالَوْاْ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ﴾ (آل عمران:٦١) أي نادي.. واستُعمل كلٌّ من النداء والدعاء موضع الآخر في قوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً﴾ (البقرة:١٧١)؛ وقوله تعالى في معنى الطلب: ﴿وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا﴾ (فاطر:١٨). وقوله تعالى في معنى القول: ﴿فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ...﴾ (الأعراف:٥) أي ما كان قولهم إذ جاءهم العذاب، وقوله

(١) ابن منظور، لسان العرب (بيروت:١٩٩٠م) ١٤/٢٦٠.

تعالى في معنى الاستعانة: ﴿وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ (البقرة:٢٣) أي استعينوا واستغيثوا، وقوله تعالى في معنى الحثّ على الشيء: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًا﴾ (نوح:٥) أي حثثتهم على عبادة الله سبحانه، وقوله تعالى في معنى السؤال: ﴿قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ (البقرة:٦٩) أي سله، وقوله تعالى في معنى النسبة: ﴿ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ﴾ (الأحزاب:٥) أي أنسبوهم. وإضافة إلى هذه المعاني جاء الدعاء في القرآن بمعنى العبادة في قوله تعالى: ﴿لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا﴾ (الكهف:١٤) أي نعبد، وفي آية أخرى جاء مرادفاً للعبادة، يقول تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ (غافر:٦٠)، فجعل الدعاء هنا ممثلاً للعبادة ومترجماً لها.. وقال ﷺ: «الدُّعَاءُ هُوَ الْعِبَادَةُ»[1].

فالدعاء هو العبادة الحقيقيَّة ذاتها، لدلالته على إقبال العبد على الله عزَّ وجلَّ والإعراض عمَّن سواه، و اقترانه بسائر العبادات والطاعات التي يتقرب بها العبد إلى خالقه تعالى بشكل لا يقبل الانفصال كالصلاة والصيام والحج من جهة، وكل الأعمال المحتسبة لله عز وجل من جهة أخرى، لذا كان الاستمرار في الدعاء يشكّل تأكيداً لتقرير حقيقة مهمة

(١) أخرجه الترمذي، وقالَ: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.

في نفس الإنسان المسلم، وهي فقره إلى الله، وعدم استغنائه عنه في كل الأحوال، يقول تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ (فاطر:١٥)، وتنمية الإحساس بالفقر إلى الله والحاجة إليه وعدم الاستغناء عنه غايات تعبدية يستهدفها الدين بذاتها، ويلزم الإنسان اتباعها في كل عباداته، يقول تعالى: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ (الأعراف:٥٥).

من هنا كان الدعاء عبادة حيّة متحركة، رغم خضوعها لزمان ومكان معينين، ولأفعال خاصة وألفاظ محددة، إلا أن الإنسان ينطلق فيها حراً يتطلع لعبودية الله وحده لا شريك له، يذوق حلاوة قربه، والتنعم بمعيته وطاعته. وكان رسول الله ﷺ يمارسها في جميع حالاته، لأنها تترجم عمق الصلة بين العبد وبارئه، ويعكس حالة الافتقار المتأصلة في ذاته إلى الله سبحانه، مع إحساسه العميق بالحاجة إليه والرغبة فيما عنده، فكانت مصاحبة لكل عمل يقوم به، من أبسط الأشياء إلى أعظمها التي غيرت وجه التاريخ، وأوجدت خير أمة أُخرجت للناس، وقد روى البخاري عن السيدة عائشة رضي الله عنها أنها قالت: «كان النبي ﷺ يذكر الله كل أحيانه».

يقول ابن القيم: «فضرورته ﷺ إلى ربه وفاقته إليه بحسب معرفته به، وحسب قربه منه ومنزلته عنده. وهذا أمر إنما بدا منه لمن بعده ما يرشح من ظاهر الدعاء، ولهذا كان أقرب الخلق إلى الله وسيلة وأعظمهم عنده

جاهاً، وأرفعهم عنده منـــزلة، لتكميله مقام العبودية والفقر إلى ربه عـــز وجل»[1].. وبسبب افتقاره إليه عز وجل، كان من دعائه ﷺ: «**اللَّهُـــمَّ رَحْمَتَكَ أَرْجُو فَلا تَكِلْنِي إِلَى نَفْسِي طَرْفَةَ عَيْنٍ، وَأَصْلِحْ لِي شَأْنِي كُلَّهُ، لا إِلَهَ إِلا أَنْتَ**»[2].

من هنا كان اتباع سنة رسول الله، وتعلم الدعاء منه، مع الإيمـــان والوثوق بالإجابة، بعد العمل على تهيئة الظروف والأخـــذ بالأســـباب المادية، عامل تيسير مهم يجب استثماره لتيسير حياة الإنسان، وجعلـــها مليئة بالرضى والطمأنينة والسلام والتقدم، فعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ بُسْرٍ، رَضِـــي اللَّه عَنْه، أَنَّ رَجُلاً قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ شَرَائِعَ الإِسْلامِ قَدْ كَثُرَتْ عَلَيَّ، فَأَخْبِرْنِي بِشَيْءٍ أَتَشَبَّثُ بِهِ.. قَالَ: «**لا يَزَالُ لِسَانُكَ رَطْبًـــا مِـــنْ ذِكْـــرِ اللَّهِ**»[3].

والدعاء نوعان:

دعاء المسألة، أي طلب ما ينفع الداعي من جلب نفع أو كشف ضر أو توبة أو استغفار وغيرها، **ودعاء التعبد**، أي سائر القربات من ذكر وتلاوة وصلاة ونسك ومختلف الطاعات. قال الإمام ابن القيم:

---

(١) ابن القيم الجوزية، طريق الهجرتين وباب السعادتين، تحقيق: وليد الجمـــل وعـــادل شوشة، ط٣ (دار ابن رجب للنشر والتوزيع، ٢٠٠١م) ص ١٢.

(٢) أخرجه أبو داود، كتاب الأدب.

(٣) أخرجه الترمذي، وقال: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ.

«والدعاء من أنفع الأدوية، وهو عدو البلاء يدافعه، ويعالجه، ويمنع نزوله، ويرفعه، أو يخففه إذا نزل، وهو سلاح المؤمن، وله مع الدعاء ثلاث مقامات:

أحدها: أن يكون أقوى من البلاء فيدفعه.

٢- أن يكون أخفَّ من البلاء فيقوى عليه البلاء، فيصاب به العبد ولكن يخففه، وإن كان ضعيفاً.

٣- أن يتقاوما ويمنع كل واحد منهما صاحبه»[١].

والإنسان الذي وصل إلى مستوى تذوق لذة الإيمان وسما بالعبادات، لا يمكن أن يقصّر أبداً في الدعاء، ويدرك أن العبادات هي غاية الموجودات وسبب خلقها، لذا يعطيه أهمية قصوى، كي ينعكس على حياته.

وللدعاء أهداف عديدة يمكن أن يصل إليها المؤمن، منها حفظ النفس وتزكيتها، يقول تعالى: ﴿ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾ (الرعد:٢٨)، فهناك أمراض تفتك بالبشرية، وتُعَرض حضارتها للانهيار، وتصيب أفرادها بالوهن، منها الإلحاد والتطرف والعبثية والعدمية، لكن الإيمان يظل ينبض في أعماق الفطرة الإنسانية رغم بعدها عن الحق والعدل. وربما هذه الحقيقة ترقد في أعماق كل إنسان، مهما كانت قناعاته أو توجهاته، وإن لم يعترف بها، لذا يلجأ إلى الله تعالى كلما تعبت

---

(١) ابن القيم، الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي، ص١٣.

نفسه، واشتاقت لفطرتها، وللتطهر من أردانها. وتكون البداية ضيقها من السيئات التي تنغمس فيها. وإذا أراد الله بعبده خيراً فتح له من أبواب التوبة والندم والانكسار والذل والافتقار والاستعانة به وصدق اللجوء إليه ودوام التضرع إليه والدعاء والتقرب إليه، بما أمكن من الحسنات، ما تكون تلك السيئة به سبب رحمته [1].

ويأتي الدعاء لشحن الإنسان بدلالات القرب والمعية ما يعود نفسه البشرية على الارتقاء نحو مدارج السمو والكمال الإنساني، وتطبيعها بممارسات وسلوكيات نابعة من أصول حضارتنا، وطبيعة وجودنا على وجه هذه الأرض. فإصلاح النفس وتزكيتها وتطهيرها بالدعاء من أجَلّ الأهداف التي يسعى إليها الداعي، لأنه يدرك أن أي خلل يصيبه، مهما كانت طبيعته، يكون مصدره من نفسه، ويكون ذلك تنبيهاً للرجوع إلى الله، واكتشاف مصدر الداء والخطأ. وحين حلت الهزيمة بالمسلمين في أحد وقال بعض الصحابة: «كيف نُهزم ونحن جند الله» جاء الجواب من الله تعالى آيات بينات لمن يسمع ويتعظ: ﴿ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ﴾ (آل عمران:١٦٥). إن الهزيمة وقعت بسبب خلل داخلي على المسلمين إصلاحه ليأتي النصر.

---

(١) ابن القيم الجوزية، الوابل الصيب من الكلم الطيب، ط٢، ص ٤.

ولا يغتر المسلم بسريان الفساد في نفسه وفي مجتمعه، فيعتقد أنه لا سبيل للإصلاح وللرجوع، فذلك إحباط ويأس من رحمة الله وعفوه، وإنما عليه أن يبدأ بإصلاح نفسه متوكلاً على الله تعالى، ويلجأ إلى التوبة.. والتوبة عبادة مرتبطة بالدعاء، لا بد منها كي يستطيع المذنب نسج جسور الطاعة بينه وبين ربه واللجوء إليه ودعائه.

وأركان التوبة[1]: الندم الصادق النابع من القلب، ثم العزم الأكيد على ترك الذنوب والمعاصي، ولما كان الإنسان ضعيفاً فإنه ربما يعود إلى ارتكاب الذنوب، لكن باب التوبة الصادقة يظل مفتوحاً، يقول تعالى: ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا﴾ (الإسراء:٢٥). والركن الثالث الإقلاع عن الذنوب والمعاصي لأن التوبة تقترن بالإيمان والعمل الصالح، يقول تعالى: ﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ﴾ (الفرقان:٧٠)، ومجانبة الشيطان: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ ﴾ (الحجر:٤٢)، ويقول تعالى على لسان إبليس: ﴿ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴾ (ص:٨٢-٨٣). والتوبة الدائمة والاستغفار يفسحان المجال للمسلم كي يشكر نعم الله عليه، ويصبر

---

(١) انظر تفصيلها وانظر أيضاً شروطها وأقسامها في: خطب الشيخ القرضاوي، إعداد الشيخ خالد السعد، الجزء الأول (البحرين: دار الحكمة) ص ٣٠- ٦٢.

على المحن التي يتسليه بها ويلجأ إلى الدعاء يتزود منه ما يعينه على الثبات في كل ذلك.

ومن أهداف الدعاء تبليغ الحقيقة الإسلامية وإذكاء جذوتها في النفوس المتعطشة إلى السلام والاطمئنان والأمان، يقول تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ (الحديد:١٦).

ومن الأهداف المهمة أيضاً التزود بزاد سهل في متناول الجميع، ورغم سهولته إلا أنه عند الله عظيم، ولا يكاد يلتفت إليه المسلم المعاصر إلا إذا كان في ورطة أو مصيبة، لكن إذا علم الإنسان أنه مجرد ضيف زائر للدنيا سوف يرحل عنها قريباً، خالي الوفاض إلا من زاد معنوي يتحصله من أعماله المادية والمعنوية، ليرجع كل شيء إلى أصله، الجسد إلى التراب، والروح إلى بارئها عز وجل، سيدرك أن عليه أن يتزود لرحلته إلى الله تعالى، وطبيعة الزاد يوصله إلى نتيجته. فمن كانت طريقه إلى الله وجده موفياً حقه، ومن كانت طريقه غير ذلك وضل سبيله وجد الله أيضاً يوفي له حسابه غير منقوص، ودخل في زمرة من ﴿... أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ (مريم:٥٩)، وكانت النهاية الأبدية لمن على شاكلته أنهم ﴿يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ (محمد:١٢).

ولذلك ينادي الله عبـــاده المـــؤمنين: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ۝ وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقْنَـٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴾ (المنافقون:٩-١٠)، وتتميز طبيعة زاد المؤمن بكل مـــا فيـــه رضـــى الله ورضوانه حسب الاستطاعة، يقول تعالى: ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ ﴾، وهو تعالى عليم بمجهود المؤمن في التزود، يقـــول: ﴿ وَسْـَٔلُواْ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾ (النساء:٣٢). وإذا كان زاد المرتحل إلى الله محفوف بالفضل والتقوى، فإن على المؤمن المتزود أن يزيـــد منـــهما، ويسعى إلى تغيير ما يصبح عادة في عباداته، وما يبعده عن الصراط المستقيم.

وبما أن الأمة في أمس الحاجة إلى تغيير يتصاعد من أعماقها، والتوجـــه إلى مخاطبة فطرة الإنسان وعقله وذوقه، خاصة وأن حركـــات التـــاريخ وسننه المتتابعة أثبتت أن الابتعاد عن الدين، فكراً وسلوكاً، هـــو أســـاس جميع ألوان الاضطراب والانحراف الفردي والاجتماعي، ابتداءً بفقـــدان الصحة النفسية والروحية، وانتهاءً بالممارسات المنحرفة، فإن الدعاء عنصر فاعل في إعادة بناء شخصية الإنسان المسلم، وفي تنمية قدرات مواجهاته لمختلف التحديات والأزمات، ووقف نزيف الألم والقلق النابع من داخله، من أجل التركيز على قضايا مصيرية تمس الفرد والأمة، وعاملاً أساسياً في تفجير طاقاته، وإشاعة روح النشاط في نفسه كي يقوم بواجباته بدلاً من

كونه (أي الدعاء) وسيلة للاتكالية والتجميد والخمول، كما أصبح عند سواد الأمة. والبناء الداخلي لأي تغيير هو من أدق الأعمال وأصعبها، لأن الواقع الخارجي ليس سوى انعكاس للتكوين والتعبئة الداخلية، فبقدر ما يكون الإنسان متماسكاً ومطمئناً داخلياً وواضحاً في رؤاه وتصوراته، بقدر ما يكون أقدر على تحقيق أهدافه داخل الأمة، وأقدر على التزود بزاد المرتحل إلى الله تعالى.

وقد وردت عن رسول الله ﷺ دعوات وأذكار خاصة، تُعد زاداً سائغاً، ناجى بها ربه في أوقات وأحوال ومناسبات شتى، يشع منها نور النبوة، ويلوح فيها عمق عبوديته وقربه من الله عز وجل. وقد أُلفت فيها كتب خاصة، منذ عهد الإمام النسائي، وتلميذه ابن السني، ثم كتاب الأذكار للنووي، والكلم الطيب لابن تيمية، والوابل الصيب لابن القيم، والحصن الحصين للجزري، وتحفة الذاكرين للشوكاني، وغيرهم. وفي عصرنا ألف مجموعة من العلماء عدداً من المصنفات في هذا المجال المتجدد، منهم الداعية الكبير الشيخ محمد الغزالي، رحمه الله، في كتابه «فن الذكر والدعاء عند خاتم الأنبياء» عرض فيه كثيراً من الدعوات والأذكار النبوية بقلم الأديب، وروح الداعية، وقلب المؤمن، وحرارة المحب لله تعالى ولرسوله ﷺ. وما زال هذا الموضوع يحتاج إلى إغناء وإضافة بقدر حاجتنا وافتقارنا إلى الله عز وجل، وليس هذا البحث سوى فيض رغبة تأصلت في نفسي من تذوق لذة اللحظات التي أخلو بها مع كلمات الدعاء القرآني والنبوي الخالدة، وددت أن أهديها إلى أمتي، عسى خالقنا وبارئنا سبحانه وتعالى أن يقبلها مني ويجعلني ألقاه وهو راض عني، آمين.

أثر الدعاء في إعادة بناء الإنسان

إن حياة الإنسان المسلم في حاجة، أكثر من أي وقت مضى، إلى إعادة صياغة شخصيته عملياً وفكرياً وتوجيهياً وفق تربية إيمانية متكاملة، بما يلائم كينونة وجوده وطبيعة مهمته الإنسانية في الأرض، وذلك من أجل تجاوز واقعها المليء بالإحباطات والتناقضات والإكراهات والإغراءات أيضاً، المادية والمعنوية، التي تغرقها أكثر في مستنقعات التبعية والتقليد والخرافة والاستلاب والتغريب واستعادة الشخصية الفاعلة المسترشدة بهدي الإسلام، الذي أحدث انقلاباً شاملاً في الحياة البشرية كلها، سواء على مستوى الممارسة والسلوك أو على مستوى الفكر والتصور، حيث استطاع الإنسان في ظله أن يتحرر من كل ما يعوقه عن الانطلاق في تحقيق خلافة الله في الأرض وإعمارها بالخير والنماء، وذلك من أجل ربط الصلة بمقومات رقينا التاريخي واستعادة دورنا في الحياة باستثمار طاقات وقدرات تُهدر في مجالات تافهة وسلبية وإعادة النافرين والمستلبين إلى دائرة الوجود الحضاري الفاعل[1].

وشحذ الهمم في أفراد هذه الأمة يتم عبر الفهم الصحيح لوظيفة الإنسان ومهمته، لتنظيم سير الحياة وتعقيداتها، وإزالة بصمات عصور التخلف

(١) سعاد الناصر، نحو بناء شخصية فاعلة، مجلة الوعي الإسلامي، عدد ٤٤٢، ص٧٨-٧٩.

والانحطاط، التي تضمنت إقصاء مقتضيات النهوض والتنمية والرقي عن اهتمامات الدين، وتهميش كامل لإرادة الأمة ومصالحها الآنية والمستقبلية. وهذا الفهم يعيد المكانة لكثير من الممارسات التعبدية التي قد نمارسها في غياب شبه مطلق عن تفعيلها في حياتنا، والتي من ضمنها الدعاء.

إن ذكر الإنسان لله سبحانه ودعاءه لا يجب أن يكون إحساساً عائماً، أو عملاً مقطوع الصلة والجذور بالسلوك والمواقف العملية للإنسان كما هو الشأن في واقعنا المعاصر، بل من المفروض أن يكون للدعاء آثاره ومردوداته الإيجابية البناءة على نفسية الفرد وعلاقاته ومواقفه، ومن ثم على المجتمع بصفة عامة، وإلا فإنه يفقد معناه وهدفه وغايته عندما تتحول مناجاة الله عز وجل إلى عبارات ميّتة جوفاء، فارغة من الإحساس الصادق، الذي يعكس عمق التفاعل والاتصال به تعالى، وصفاء التأمل في النفس والكون، وسلامة المواقف والعلاقات.

وقد يُعتبر الحديث عن الدعاء من أنواع الهروب من الواقع في وقت يستدعي التركيز على قضايا مصيرية تمس الفرد والأمة، لكن إذا نظرنا إليه من زاوية ضرورة معرفة ذواتنا وتنمية قدرات مواجهاتنا لمختلف التحديات والأزمات، ووقف نزيف الألم والقلق النابع من داخلنا، فإن الأمر يصبح أكثر إلحاحاً كي نهتم كما يجب بقضايانا المصيرية، فردية كانت أم جماعية، لذا فإن البحث عن مقومات تكون أساساً لتربية إيمانية

تتكامل فيها أشواق الروح مع متطلبات الجسد تصبح ضرورية وملحة في وقت وصل فيها أفراد الأمة إلى درجات من التخبط والتمييع والسلبية والغثائية، و لم يعد أكثرهم يحس باحترام لذاته الإنسانية التي كرمها الله، يقول تعالى: ﴿ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾(الإسراء: ٧٠).

من هذه المقومات التي تجعل المسلم يعيد تشكيل شخصيته، ويُحملها مسؤولية تصرفه دون شطط أو غلو، ويكون الدعاء جزءاً لازماً فيها:

١- معرفة الله تعالى:

دون الدخول في عمق التفاصيل الفكرية، يمكن أن نقترب من تبسيط هذه المعرفة كي نعي قيمتها وأثرها في العقل والوجدان الإنساني، وتأثيرها في إعادة بناء شخصية الإنسان.

تستلزم معرفة الله عز شأنه التفكر في مصدر الوجود أولاً ثم معرفة الهدف من خلق الإنسان ثانياً.

أ- التفكر في مصدر الوجود:

إن أي إنسان سوي الفطرة يدرك بعقله أنه لم يأت من العدم، كما يدرك بوجدانه أنه لم يوجد نفسه في هذا العالم أو وجده صدفة، وأنه لابد من خالق خلقه وخلق الكون من حوله؛ وفي القرآن الكريم دعوة مستمرة للتفكر في مصدر الوجود، يقول تعالى: ﴿ وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ

﴿لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِيٓ أَنفُسِكُمْۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ (الذاريات: ٢٠-٢١) وبسط لقضية المعرفة بالله والإيمان بوحدانيته من خلال عرض لمظاهر الحياة بكل ما فيها من حيوية واستمرار وقوة، يقول تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (البقرة: ١٦٤)، ويقول في آية أخرى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰۖ يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَيِّۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًاۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍۗ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (الأنعام: ٩٥-٩٩).

وتمثل هذه الآيات نموذجاً لكثير من الخطاب القرآني الذي يدعو العقل الإنساني إلى التفكر والتدبر والتعقل لكل ما في الكون من ظواهر

وموجودات تتحرك وتتجدد، وتقدم مادة حية مستمرة تنبئ عن الخالق الأعظم الذي خلقها وأوجدها، وتؤكد أن العلم وطريقه يوصلان الإنسان إلى اكتشاف الخالق ومعرفته من خلال اكتشاف خلقه في الكون. وإذا لم تسمُ العلوم الكونية والمادية بالإنسان في مدارج الإنسانية الحقة، وترفعه إلى درجات المعرفة بالله تعالى والتيقن بجلاله وعظمته، وتبصره بتجلياته سبحانه في الكون والنفس تصبح عبئاً يفسد حياة الطمأنينة والسلام، وعبئاً يهوي بالبشرية إلى مراتب حياة البهيمة والأنعام، يقول تعالى: ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ۝ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ (التين:٥-٦)، ليعيش الإنسان في ظلمات الظلم والجهل، يقول تعالى عن هذا الإنسان: ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ (الأحزاب:٧٢).

وكلما ازداد علماً ومعرفة وتبصراً كلما ازدادت معرفته بالله وخشيته منه وامتثاله لأوامره، يقول تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ ﴾ (فاطر:٢٨)، إلا الذين لا يريدون الهداية، فيصبحون كما أخبر عنهم عز وجل: ﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ﴾ (الأعراف:١٧٩)؛ لأن العلم وخاصة الذي تمتد جذوره في عمق الحياة يكتشف الصلة بين الكون وما يوجد فيه من خلق وبين الله تعالى، ويصل إلى المعرفة الحقة به تعالى، والله تعالى جعل في كل شيء دليلاً عليه ما على الإنسان إلا اكتشافه.

وإحصاء أولي للآيات، التي تُعرِّف الله من خلال كونه وخلقه، تدفع الإنسان إلى تمثُّل دلالات ﴿ ٱقْرَأْ ﴾ التي فصلت بين العلم وبين الجهل والخرافة، بين الجمود والاتباع وبين التطوير والإبداع.

والناظر لحال الأمة يدرك أنها ابتعدت منذ قرون عن هذه الدعوة الربانية لفعل القراءة، وممارستها علماً ومعرفة وسلوكاً إيمانياً بالخالق العليم، وأن حقيقة الدعوات المتكررة في القرآن الكريم للنظر في الكون والإنسان والآفاق والتاريخ لم تعد تنبض في وجداننا وعقولنا قوية حية تحرك سلوكياتنا وتتجه بنا نحو تربية الجناحين، اللتين طارتا بهما الحضارة الإسلامية نحو قيادة البشرية، وهما جناح العلم وجناح العمل الصالح. وطبيعي أنّ تقبّل هذا المفهوم يحتاج إلى وعي إنساني عميق للكون والطبيعة، وفهم عقائدي لكيفية سير الحوادث والوقائع على مسرح الحياة للتعرّف على أثر القوّة والإرادة الإلهية في هذا العالم.

من هنا كان تفعيل الإيمان في حياة كل مسلم قضية أساسية، تخرج الدين من كونه مسألة شخصية محدودة، إلى اعتباره منهجاً متكاملاً يتغلغل في نسيج الممارسات الإنسانية المتعددة، فتصبح مدار حياة الإنسان لا تخرج عن دائرة قوله ﷺ: «**ثَلاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ طَعْمَ الإِيمَانِ: مَنْ كَانَ يُحِبُّ الْمَرْءَ لا يُحِبُّهُ إِلا لِلَّهِ؛ وَمَنْ كَانَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا؛ وَمَنْ كَانَ أَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ أَنْ يَرْجِعَ فِي الْكُفْرِ**

بَعْدَ أَنْ أَنْقَذَهُ اللَّهُ مِنْهُ»[1]. وهذا الطعم الإيماني ينبع عنه سلوك عملي وأخلاقي يتميز به المسلم عن غيره. ولن يتم تذوقه وتفعيله إلا بالحب الرباني، وربطه بأصل الانبعاث الإسلامي في قوله ﷺ: «إِنَّمَا بُعِثْتُ لأُتَمِّمَ صَالِحَ الأَخْلاقِ»، وبالاستجابة لعوامل الإحياء، يقول تعالى: ﴿ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ (الأنفال:٢٤). والاستجابة للحياة الصحيحة المستقيمة تقوى أو تفتر أو تضمحل حسب سعة التعرف إلى الله تعالى أو ضيقه. وقد تكون هذه المعرفة فطرية، لكنها تنمو بالتربية والتوجيه، ومجاهدة النفس على التخلق بأخلاق الإسلام. وبدون تفعيل الإيمان الحق في حياة الأمة لينسحب على واقعها فإنها تجنح عن الصواب، ولن يفيدها آنذاك أي نظام أو غيره لتغييرها.

ومن شأن هذه المعرفة أن تساهم في بناء شخصية مؤمنة بالله عز وجل، مرتبطة به في كل شأن من شؤونها، لأنها تعي وتدرك أن كل شيء بيد الله، يتصرف فيه كيفما يشاء، فهو القوي القاهر فوق عباده، وهو الحكيم الخبير الذي يتصرف في كونه وخلقه من خلال سنن وقوانين تضبط التوازن في حركة الوجود، وهو الرب الرحمن الرحيم الكريم المحسن المشع بالأمن والأمان مهما تخبط الإنسان في مزالق الفوضى أو ابتلاءات الحياة، فيقف أمامها في هدوء عقلي وسكينة نفسية، لأنه يوقن أن كل

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب الإيمان.

شيء خاضع للتخطيط الإلهي: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ (القمر: ٤٩)، وأن هذه الشخصية مدعوة لأداء مهمتها في الحياة حسب المنهاج الذي ارتضاه ربها لها. ومن ثم تكون معرفة الله تعالى وتوحيده قاعدة البناء العقائدي والفكري للتصور الإسلامي، يرسو عليه فهم خاص لكل العبادات، ومن ضمنها الدعاء.

كما تكون معرفته سبحانه مفتاح الحب الإلهي. وتجربة الحب الإلهي تجربة إنسانية رائعة، لا يذوق لذتها ومتعتها ولا يدرك أبعادها ويعي مضامينها سوى من توصل حقاً لمعرفة الله، وعاش مشاعر الاستغراق والشوق الإلهي العميق، وانطلقت ذاته من أسوار أنانيتها وغرورها وجحودها، تبحث عن مرسى مفعم بالأمن والطمأنينة، تحقق فيه حالات الحضور والانشراح بذكر الله والثناء عليه وتعظيمه ودعائه ومناجاته، وتتطلع إلى التنعم بظل الله تعالى، يقول النبي ﷺ: **«لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَلَدِهِ وَوَالِدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ»**[1]، ويقول ﷺ: **«إِنَّ اللَّهَ يَقُولُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: أَيْنَ الْمُتَحَابُّونَ بِجَلالِي؟ الْيَوْمَ أُظِلُّهُمْ فِي ظِلِّي يَوْمَ لا ظِلَّ إِلا ظِلِّي»**[2]. فمن يعرف الله تعالى تتجلى أمامه عظمة صفاته، وجمال تجلياته في الكون، فيبدأ عقله ووجدانه يتذوق

(١) أخرجه مسلم، كتاب الإيمان.

(٢) أخرجه مسلم، كتاب البر والصلة.

حـلاوة القرب والمعية، ويعـيش العـلاقة الطبيعـية الصـحيحة مـع خـالقه، يقول تعالى: ﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴾ (البقرة:١٥٢)؛ حب متبادل بين الإنسان وربه، وذكر مستمر للنعم التي متعه بها خالقه.

ب- الهدف من خلق الإنسان:

يؤكد الله عز وجل أن الهدف من الوجود الإنساني هـو العبـادة، بمفهومها الشامل للحياة، ولمختلف النشاط الذي يستغرق هذه الحيـاة، يقول تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ (الذاريات:٥٦)، وهو كذلك مفهوم قوله جل شأنه: ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ (البينة:٥)، وواضح منطوق قوله تعالى: ﴿ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ﴾ (يوسف:٤٠)

والعبادة، كما يقول ابن تيمية، اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة، وهـو الخضـوع لله بالطاعـة، والتذلل له بالاستكانة[١]. والمسلم مدعو إلى تجديد ميثـاق العبوديـة لله مرات عديدة في اليوم، وذلك في بداية كل صلاة: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾، فلا عـبادة إلا لله ولا استعانة إلا به سبحانه، والعبادة هنا

---

(١) تفسير ابن جرير الطبري، ١/١٥٥.

بمعنى العبودية المطلقة لله، المتعالية والمستغنية عن كل ما سواه، كي يصل الإنسان إلى مطلق التحرر من كل العبوديات، مهما كانت، ويمارس حقيقة الاستخلاف، يقول تعالى مبيناً طبيعة وجود هذا الإنسان في الأرض: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ (البقرة: ٣٠). والخلافة تستلزم ألواناً من النشاط الحيوي والمستمر في عمارة الأرض، واستكشاف قواها وطاقاتها من أجل استخدامها في تنمية أساليب الحياة وترقيتها وتطويرها لخدمة الإنسان المستخلف فيها «ومن ثم يتجلى أن معنى العبادة، التي هي غاية الوجود الإنساني أو التي هي وظيفة الإنسان الأولى، أوسع وأشمل من مجرد الشعائر، وأن وظيفة الخلافة داخلة في مدلول العبادة قطعاً، وأن حقيقة العبادة تتمثل في أمرين رئيسيين:

الأول: هو استقرار معنى العبودية لله في النفس، أي: استقرار الشعور على أن هناك عبداً ورباً، عبداً يَعبد ورباً يُعبد، وأن ليس وراء ذلك شيء، وأن ليس هناك إلا هذا الوضع وهذا الاعتبار، رب واحد والكل له عبيد.

والثاني: هو التوجه إلى الله بكل حركة في الضمير وبكل حركة في الجوارح وكل حركة في الحياة، التوجه بها إلى الله خالصة والتجرد من كل شعور آخر، ومن كل معنى غير معنى التعبد لله»[1].

---

(١) في ظلال القرآن، المجلد السابع، ص ٢٨.

وحين يدرك الإنسان معنى العبودية يعي عن تبصّر أن الله تعالى، كما أخبر عن نفس ﴿ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ ﴾ (المؤمنون:٨٨) وبذلك يصبح الإيمان قوة عظمى يستعلي بها المؤمن على كل قوى الأرض، وكل شهوات الدنيا، لا يتطلع لأحد غيره، ولا يتعبد لأحد سواه، فلا يخاف إلا من الله، ولا يذل إلا لله، ولا يطلب إلا من الله، ولا يأمل إلا في الله، ولا يتوكل إلا على الله، ويتحرر قلبه وروحه من كل أشكال وأنواع العبوديات.

هذه الصلة العميقة والواعية، التي تنشأ بين الإنسان وبين ربه تجعله يتطلع خفافاً إليه تعالى ويستشعر وجوده معه في كل لحظة من لحظات حياته، فيسعى إلى اكتشاف حقائق المعرفة الربانية وتجلية عظمة الصفات وجمال الذات الإلهية، وتمتلئ النفس بحقيقة وجوده تعالى، وتتطلع إلى تذوق لذة قربه في كل لحظة من لحظات حياتها: ﴿ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَـٰذَا بَـٰطِلًا سُبْحَـٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ (آل عمران:١٩١)، ويصبح ذكر المؤمن ودعاؤه تعبيراً صادقاً عن ارتباطه وتعلقه بمولاه سبحانه وشوقه إليه، كما يصبح دليل الافتقار إليه تعالى دليل رجوع وتوبة يتيحها الله لعبده كلما زاغ عن جادة الصواب، أو ابتعد عن المنهج القويم: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَـٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَـٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴾ (الأعراف:٢٠١).

وإذا بلغ الإنسان درجة التبصر والإقرار بأن الله خالق كل شيء ومالكه، وتجاوز الدعاء اللفظ واللسان، وتناغم الوجدان مع دلالات الكلمات أدرك أن العزة منه سبحانه والذل من سواه، وأن انشغاله بهموم الدنيا وصغائرها، مهما عظمت في عينيه، وتألمه من أجلها تفاهة وصغار، وأدرك أن التربية الربانية تحدُّ من استعلاء العبد وطغيانه.

من هنا ندرك أهمية ابتعاد الإنسان، بين الحين والآخر عن صخب الحياة ومشكلاتها للاختلاء بالله عز وجل، من أجل التأمل المثمر في ملكوته وملكه، وحمد نعمه، والغوص في أعماق النفس وتنظيم خلجاتها، والتفكير الهادئ في تجاربه الحياتية، وإعادة تقييم مواقفه وأفكاره وسلوكياته، والاستغفار منه تعالى عن ذنوبه وأخطائه، والاستعانة به من أجل شحن النفس بطاقات إيجابية تحفزها على الانطلاق في طريق الاستقامة والخير والحق والعدل، بدل التقوقع في السلبية والانهزامية، وتثبيت منظومة القيم والأخلاقيات، وتحويلها إلى ممارسات سلوكية، وعبادات حية، بدل التشتت والعادات الجامدة والشعارات الفارغة.

هذا التوقف، لا يعني الابتعاد عن الممارسة الحياتية، وإنما يعني مداومة استصحاب الله عز وجل كل حين، خاصة إذا وعى الإنسان جيداً أن أي عمل يقوم به، مهما كان، إذا ابتغى به وجه الله فهو عبادة، الأمر الذي يؤكد أن المؤمن لا يقف عند الحد التعبدي، وإنما تترشح منه آثار أخلاقية

تساهم في تصحيح مساره، واقتلاع جذور الفساد الأخلاقي من أعماقه، فيصبح آنذاك يعبد اللّهَ كأنه يراه، فإن لم يكن يراه فإنّه سبحانه يراه.

و«إحساس المسلم أن الله بكل شيء محيط، وبكل شيء بصير، وعلى كل شيء شهيد، وأنه يجير ولا يُجار عليه، ويحكم فلا معقب لحكمه..إلخ، هذا الإحساس يترك أثره على قوله وفعله، وجده وهزله، ورضاه وغضبه، أو بإيجاز يخط له خطاً واضحاً في شؤون الحياة كلها»[1]، وبذلك يكون الإيمان «قدرة على الحياة في جميع دروبها، قدرة علمية ومادية يصـــحبها تطويع كل شيء لإرضاء الله وابتغاء وجهه»[2]

٢- الارتقاء السلوكي والأخلاقي:

يشتمل الدين الإسلامي على عنصرين متكاملين: العقيدة والمنهج ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ (المائدة:٤٨). وقد بلـــغ هذان العنصران من الكمال بمقدار ما أراد الله لدينه من الكمال والاستمرار والشمول، يقول تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ (المائدة:٣)، ويقول تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾ (آل عمران:١٠٣).. و«الاعتصام بالدين هو حركة متكاملة بين الباطن والظاهر، بين العقيدة والسلوك، بين القلب

---

(١) محمد الغزالي، المحاور الخمسة للقرآن الكريم، ط ٤ (دار الصحوة للنشر، ١٩٩٤م) ص ٧٥.

(٢) المرجع السابق، ص ٧١.

والعقل، بين الفرد والجماعة (...) فهو حركة تستهدف إنشاء أمة وإنشاء ثقافة، ليجد الإنسان المسلم في ظل الحضارة والثقافة والدولة الإسلامية المجال الحيوي الذي يتحرك فيه»[1].

وحين يقول ﷺ: «إِنَّمَا بُعِثْتُ لأُتَمِّمَ صَالِحَ الأَخْلاقِ»[2]، فإنه يقرر حقيقة أن الشريعةَ الإسلاميةَ تنبع وتنبثق من عقيدة أساسها الأخلاق، وأن هذه الأخلاق هي العامل الأهم في استمرارية شعلة الإيمان في حياة كل مسلم، وجعلها المحك الذي يجعل التصور العقدي ينزل على أرض الواقع، ويعكسه بشكل تطبيقي متكامل في كل الممارسات الإنسانية المتعددة، لتكون حياة الإنسان متوازنة بين التصور والسلوك، تستجيب للآيات القرآنية الكثيرة المتعلقة بموضوع الأخلاق وربطها بالسلوك، كما تستجيب لحثه ﷺ على التخلق بالأخلاق الحسنة في مثل قوله: «اتَّقِ اللَّه حَيْثُمَا كُنْتَ، وَأَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمْحُهَا، وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ»[3]، وتتنافس على تبوأ مكانتها قرب رسول الله يوم القيامة، يقول ﷺ: «إِنَّ مِنْ أَحَبِّكُمْ إِلَيَّ وَأَقْرَبِكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَحَاسِنَكُمْ أَخْلاقًا، وَإِنَّ أَبْغَضَكُمْ إِلَيَّ وَأَبْعَدَكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ

---

(١) محمد الكتاني، من المنظور الإسلامي، ص ١٤٠.

(٢) أخرجه الإمام أحمد.

(٣) أخرجه الترمذي، وقال: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.

الثَّرْثَارُونَ وَالْمُتَشَدِّقُونَ وَالْمُتَفَيْهِقُونَ.. قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَدْ عَلِمْنَا الثَّرْثَارُونَ وَالْمُتَشَدِّقُونَ فَمَا الْمُتَفَيْهِقُونَ؟ قَالَ:الْمُتَكَبِّرُونَ»(١).

ومن الاستجابة والتنافس ينبع سلوك عملي وأخلاقي يتميز به المسلم عن غيره، ولذلك يجب أن تكون معاملات وممارسات وسلوكيات المسلم قائمة على منهج أخلاقي، وعلى عدم الفصل بين الحياة المادية والروحية، يقول تعالى: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾ (الحديد:٣) كي تكون الحياة في المجتمعات الإسلامية منضبطة ومتوازنة، وتعيش حالات صحية هادئة وكريمة.

ونظرة إلى السلم الأخلاقي في التصور الإسلامي تكشف أن الأخلاق قابلة للتقويم والاكتساب بالتربية والمجاهدة، وأن «لدى كل إنسان أهلية للتقويم واستعداد لاكتساب الجيد من الأخلاق والتخلي عن القبيح منها، وإن كان الناس متفاوتين في مقدار أهليتهم واستعدادهم لهذا الأمر»(٢). لذلك فإن المسلم مطالب دائماً بوضع نفسه موضع تساؤل عن مدى تخلقه، وقياس أخلاقه بدرجات قوة الإيمان فيها (أي في نفسه)، لأن الأخلاق موصولة بالإيمان ومعاني التقوى، وهذه الصلة تشتد كلما قوي الإيمان في النفس، ورسخت العقيدة فيها، مما يجعل أخلاق المسلم الطيبة

(١) أخرجه الترمذي، وقال: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ.

(٢) محمد السيد يوسف، منهج القرآن الكريم في إصلاح المجتمع، ط١ (دار السلام للطباعة والنشر، ٢٠٠٢م) ص٢٠٥.

ثابتة لا تزول ولا تضعف، لأنها موصولة بالقوي العزيز، وتجد مادة بقائها واستمرارها وصلاحها من فيضه الذي لا ينضب[1]، يقول تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾ (الشمس:٩)، ولا شيء مثل العبادات يسهل تزكية النفس وقبول الأخلاق الحسنة والنفور من السيئة، يقول تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ (العنكبوت:٤٥)، ويقول في آية أخرى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ (التوبة:١٠٣).

«وليست العلاقة مع الله ساعة مناجاة في الصباح أو المساء ينطلق المرء بعدها في إرجاء الدنيا يفعل ما يريد،كلا هذا تدين مغشوش.. الدين الحق أن يرقب المرء ربه حيثما كان، وأن يقيّد مسالكه بأوامره ونواهيه، وأن يشعر بضعفه البشري فيستعين بربه في كل ما يعتريه»[2]، أي لا يعتقد المسلم أنه «بتأديته الصلوات الخمس قد بلغ ذروة الكمال، دون أن يحاول تعديل سلوكه وإصلاح نفسه»[3] وبلوغ درجات السمو الإخلاقي، لأن هذا اعتقاد فاسد لا يحقق مقاصد العبادات.

وإذا كانت الصلاة والزكاة وسائر العبادات العملية تزكي النفس وتطهرها وتكسبها عمق التخلق بالأخلاق الحسنة، فإن الدعاء المصاحب

---

(١) عبد الكريم زيدان، أصول الدعوة، ص٩١.

(٢) محمد الغزالي، فن الذكر والدعاء، ص ٣٩.

(٣) مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، ص ٨٦.

لهذه العبادات أو غيرها بالإضافة إلى ذلك، يزيد من انخفاض مستويات التوتر والقلق، ويساعد على صفاء الذهن والقدرة على التركيز وتقوية الإرادة، والبعد عن وساوس النفس والشيطان، كما أنه تدريب عملي وتطبيقي سهل للسمو بالنفس في مدارج الأخلاق، والارتقاء بالروح لتكون أهلاً لمصاحبة رسول الله ﷺ الذي كان من دعائه، عليه الصلاة والسلام: «**اللَّهُمَّ أَحْسَنْتَ خَلْقِي فَأَحْسِنْ خُلُقِي**»[1]، كما كان من توجيهاته القيمة في مجال الارتقاء السلوكي والأخلاقي قوله ﷺ: «**أَلا أُخْبِرُكُمْ بِالْمُؤْمِنِ؟ مَنْ أَمِنَهُ النَّاسُ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ؛ وَالْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ النَّاسُ مِنْ لِسَانِه وَيَدِه؛ وَالْمُجَاهِدُ مَنْ جَاهَدَ نَفْسَهُ فِي طَاعَةِ اللَّه؛ وَالْمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ الْخَطَايَا وَالذُّنُوبَ**»[2].

والقيم الأخلاقية في الإسلام لا تتغير ولا تتطور تبعاً للظروف الاجتماعية أو السياسية والأحوال الاقتصادية، بل هي حواجز وحدود ثابتة متينة ضد الفوضى والظلم والشر والفساد، يقول الله تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾ (البقرة:٢٢٩)، ولذلك فالإنسان المؤمن يسعى دائماً إلى الثبات على قيم الإسلام مهما تغيرت به الأحوال، ولا يحق له التغيير سوى فيما يساعده على ذاك الثبات وما يحقق طبيعة استخلافه في

---

(١) أخرجه الإمام أحمد.
(٢) أخرجه الإمام أحمد.

الأرض. ومن هذا المنطلق، لا يقدم لربه إلا ما كان طيباً نقيـــاً خالصـــاً، يقول رسول الله ﷺ: «**أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ اللَّهَ طَيِّبٌ لا يَقْبَلُ إِلا طَيِّبًا، وَإِنَّ اللَّهَ أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا أَمَرَ بِهِ الْمُرْسَـــلِينَ فَقَـــالَ:** ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ (المؤمنون:٥١)، **وَقَـــالَ:** ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ (البقرة:١٧٢)، **ثُمَّ ذَكَرَ الرَّجُلَ يُطِيلُ السَّفَرَ أَشْعَثَ أَغْبَرَ يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَى السَّـــمَاءِ: يَـــارَبِّ يَارَبِّ، وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ، وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ، وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ، وَغُذِيَ بِالْحَرَامِ، فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ**»(١).

والسيرة النبوية، رغم أنها من الناحية الزمنية تمثل مرحلة من مراحل التاريخ الإسلامي، إلا أنها تتميز عنه بأنها تنـــزيل متكامل للقيم الإنسانية والأخلاقية على الواقع، وبيان عملي تطبيقي لها، وتشـــخيص منـــه ﷺ لأوامر الله عز وجل ونواهيه وتوجيهاته. وهي لذلك حياة مخبريه ومعيارية تجسدت في الواقع، وتحققت استجابة الناس لها وتمثلـــها في ســـلوكياتهم وحياتهم. وعلى عكس ما يقال بأن الإنسان إذا اتخذ أصلاً ونموذجاً يصبح سلطة مرجعية ضاغطة وقاهرة تحتـــوي الـــذات وتفقـــدها شخصـــيتها واستقلالها، وإنما إذا اتخذ نموذجاً سليماً متزناً فإنه يكتسب شخصية قوية

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب الزكاة.

متوازنة مع نفسها ومع ما يحيط بها، ولا تظل تائهة ضائعة في خضم لمعان النماذج السلبية المنحرفة، لأنه يكون واعياً أن نموذجه المثالي المتمثل في رسول الله ﷺ مؤيد من الله عز وجل ومعصوم من الخطأ الذي قد يقع فيه باقي النماذج، وبالتالي يستطيع التعامل مع النماذج الإنسانية الأخرى تعاملاً نقدياً فيأخذ منها ما يفيده ويطرح ما يضره، ويكون بذلك صادقاً مع نفسه ومع فطرته، معتزاً بانتمائه وإيمانه.

يقول تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾ (الإسراء: ٧٠).. ورغم أن الخطاب هنا شامل لبني آدم جميعاً بضمان كرامتهم، إلا أن التوصل إلى لب هذا التكريم يكون بالإيمان وحسن التخلق، والإحساس بهما، وتذوقهما، وممارستهما عملياً كي يحس الإنسان بتكريم الله وكرمه، وبالسعادة والاكتفاء والشبع في الحياة الدنيا، ويسمو بروحه المؤمنة، فيتطلع ويتشوق إلى الحياة الدائمة التي ذاق جزءاً من حلاوتها بإيمانه فيرتقي بسلوكياته، ويراقب تصرفاته ويضبطها، ويستشعر الرقابة الإلهية المطبقة على حركاته وسكناته، فلا يعزم على أي عمل يغضب ربه تعالى، أو أي ممارسة مخالفة للموازين الإلهية في السلوك والعلاقات الاجتماعية، وبالتالي يكون لذكر الله ودعائه أثر يصدّه عن كل ذنب أو معصية، ويمنحه

بوصلة يستهدي بها لتوجيه تصوره العقدي والمذهبي، ويصله بمصدر إنتاج القيم التي تمنح شخصيته خصوصيتها وتوازنها. فلا شيء يضاهي جمال الأخلاق ورفعتها وسموها، فإذا التزم بها المؤمن ألزمته، إضافة إلى ما ذكرته، بالحفاظ على أمن الكون والإنسان وسلامتهما، لأنه يؤمن بأن فناء الكون وقيامته لا تقوم إلا على شرار الناس، كما أخبر الصادق الأمين، أي إذا أذنت الأخلاقيات بالزوال، وانعدمت في الكون فقد آن أوان القيامة وفناء الدنيا.

وأكثر ما تحتاج إليه الأمة في مرحلتها الحضارية الراهنة هو صقل القيم الأخلاقية في نفوس أفرادها، كي تستطيع الرؤية بوضوح ويقين وثقة، وتتمكن من حماية ذاتها الفردية والجماعية من حالات التخلف والسقوط والانكسار والشعور بالدونية والنقص. وهي قيم تفتح لها آفاق الكشف عن معطيات حضارتها، وحقيقة هويتها، التي تذوب في لفحات التفوق المادي لدى الأمم الأخرى، ورفعة رسالتها العالمية، وتحيلها على الطاقات الكامنة في عقيدتها التي استطاعت أن تمتد في الزمان والمكان، فتحاول السعي لإعادة الاعتبار للأنا الحضارية وإعطائها صورتها الحقيقية قبل أن تتعرض للمسخ والتشويه أكثر مما هي عليه، وتعزز انتماءها من أجل التأثير في البنيات المختلفة المشكلة لواقعها المعاصر، والارتقاء به نحو مدارج السمو المحققة لدرجات الاستخلاف.

٣- التغيير والتجديد:

إن عمليات التجديد والتغيير نسيج متلاحم في طبيعة الفكر الإنساني، انبثقت عن فطرة الإنسان من أجل معايشة الواقع البشري وتحسينه والارتقاء به. لذلك شغلت قضية التغيير العقل المسلم منذ وقت مبكر في تاريخ الفكر الإسلامي، واستخدمت مصطلحات متعددة للتعبير عن دلالاته، كالتجديد والإحياء، والبعث، والإصلاح، والتحديث، وغيرها، لتدل على المفهوم نفسه، أو على مفاهيم قريبة منه. فهو ضرورة حضارية؛ لارتباطها بآليات التفكير والتصور في إعادة بناء الأمة حضارياً ومراجعة مناهج تفكيرها وأدائها، وقضية مشروعة وردت بالنص في القرآن الكريم والسنة النبوية للتطلع نحو واقع أفضل وأحسن، والسعي من أجل تربية النفس وتهذيب غرائزها وتوجيهها نحو الرقي والسمو، يقول تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ (الرعد:١١).

وإذا كان الطبري، رحمه الله، وغيره من المفسرين القدامى الذين فسروا هذه الآية قد قالوا: « إِنَّ اللَّه لا يُغَيِّر مَا بِقَوْمٍ مِنْ عَافِيَة وَنِعْمَة فَيُزِيل ذَلِكَ عَنْهُمْ وَيُهْلِكهُمْ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ مِنْ ذَلِكَ بِظُلْمِ بَعْضهمْ بَعْضًا وَاعْتِدَاء بَعْضهمْ عَلَى بَعْض، فَتَحِلّ بِهِمْ حِينَئِذٍ عُقُوبَته وَتَغْيِيره» فإنه يمكن القول أيضاً: بأن الله لا يغير ما بقوم من فتن وتمزق وهبوط وتخلف فيزيل ذلك عنهم وينقذهم حتى يغيروا ما بأنفسهم من

أمراض ورذائل، ويكدحوا إلى ربهم كدحاً، حينئذ يحل بهم نصره وعزه وتغييره، يقول تعالى مخبراً عن الطريق إلى النصر: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾ (البقرة:٢١٤).. فالنصر والنجاح في أي أمر من الأمور، لا يأتي بشكل عفوي، وإنما له طريق، تُمتحن فيه الأمة عن مدى ثباتها وصمودها وإرادتها على تغيير الخلل الذي بداخلها ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ (الحج:٤٠).

والتجديد «ظاهرة تاريخية دورية تبرز كلما اعترى المسلمين ذبول في دوافع الإيمان، وخمول في الفكر، وجمود في الحركة، واستفزهم التحدي الخارجي»[1]. وقراءة متأنية لنصوصنا الشرعية تجد مشروعية التجديد فيها، من مثل قوله ﷺ يؤصل للتجديد، ويخبر عن كونه سنة ربانية: «**إِنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ لِهَذِهِ الأُمَّةِ عَلَى رَأْسِ كُلِّ مِائَةِ سَنَةٍ مَنْ يُجَدِّدُ لَهَا دِينَهَا**»[2]. وهذا يعني العمل على زحزحة العقل المسلم من حالة الاجترار والتكرار والسكون إلى حالات التحدي والابتكار والحركة.

---

(١) حسن الترابي، الصحوة الإسلامية والدولة في الوطن العربي، مجلة الحوار، عدد٨، شتاء ١٩٨٧م ص ٩.

(٢) أخرجه أبو داود، في الملاحم.

والدعوة التجديدية يجب أن تمس عمق الظواهر والأشـياء، وعـدم الاكتفاء بالتجديد الظاهري المادي، يقول مالك بن نبي، رحمه الله: «فمنذ قرون مضت، كان الفكر الإسـلامي عاجزاً عن إدراك حقيقة الظواهر، فلم يكن يرى منها سوى قشرتها، وأصبح عاجزاً عن فهم القرآن، فاكتفى باستظهاره، حتى إذا انهالت منتجات الحضارة الأوروبية على بلاده اكتفى بمعرفة فائدتها إجمالاً، دون أن يفكر في نقدها؛ وإذا كانت الأشياء قابلـة للاستعمال فإن قيم هذه الأشياء قابلة للمناقشة، وجدنا المسلم لا يكترث بمعرفة كيف يتم إبداع الأشياء، بل قنع بمعرفة طرق الحصول عليها. هكذا كانت المرحلة الأولى من مراحل تجديد العالم الإسلامي، مرحلـة تقـتني أشكالاً دون أن تلم بروحها، فأدى هذا الوضع إلى تطور في الكم زاد في كمية الحاجات دون أن يعمل على زيادة وسائل إشباعها، فانتشر الغـرام بكل ما هو (مستحدث) في جميع طبقات المجتمع»[1].

يقول طه عبد الرحمن: «فإن حُقّ للمسـلم أن يتعجـل التجـدد الحضاري ، فلا يحق له أن يطلب إليه سبيلاً مادياً حتى يمحص منطلقاتـه وينظر في مآلاته ويطمئن اطمئناناً على مشروعية المنطلقـات وسـلامة المآلات.. ولما فاته جانب التمحيص لسبل التقدم الماديـة المنقولـة عـن الغرب، سارع إلى الأخذ بها من غير أن يتزود بنصيب من الطاقة الروحية

(١) مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، ص ٦٥-٦٦.

والقدرة الخلقية يكون كافياً لأن يدفع عن هذه السبيل أسباب البطلان التي تدخل عليها إن بقيت مجردة عن التزكية المعنوية»[1].

فالمقصود تجدد النفس من أجل الاستجابة الملائمة لمختلف التحديات، ولعوامل النهضة والرقي، وتجدد فهمنا لمختلف ما يدور حولنا، وتعميق رؤيتنا له.

وللتجديد والتغيير دلالات أخرى كالإحياء، يقول تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَـٰسِقُونَ ﴿١٦﴾ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَـٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (الحديد:١٦-١٧).. «فالإحياء واجب تدين موصول، إذ لا يكاد يتحول ظرف أو يجري زمن إلا انطوى على ابتلاء للإيمان يستوجب تجديده إزاء الموقف الجديد»[2].

وهذه الرؤية الإسلامية الشمولية لمفهوم التجديد والتغيير، بالإضافة إلى واقعيتها، فإن لها نفساً مستقبلياً، لأن الإنسان يميل بفطرته إلى التطلع إلى المستقبل، وتعليق الآمال عليه، فيعمل على تحسين واقعه وحاضره من أجل مستقبل أفضل. وبما أن المستقبل في الإسلام له بعدان: بعد دنيوي

(١) سؤال الأخلاق، مرجع سابق، ص ١٨٨-١٨٩.
(٢) تجديد الفكر الاسلامي، مرجع سابق، ص٧٣.

وبعد أخروي، فإن المسلم يعي أن الحياة الدنيا ليست سوى كتاب ضخم عليه قراءته ﴿ ٱقۡرَأۡ ﴾ وتخطي صفحاته، من أجل سببين اثنين: أحـــدهما حضاري وهو تسخير الدنيا لإعلاء كلمة الله وخدمة قيم الـــدين ومثلـــه وأهدافه، وثانيهما شخصي للانتقال إلى حياة سرمدية أخرى، وبـــذلك يكون مسؤولاً عن مستقبله ومدعواً لتفجير طاقاته وقدراته مـــن أجلـــه، ومطالباً بالسعي في دنياه إصلاحاً وإعماراً، للوصول إلى مستقبل أخروي وعده الله به.

ولأن الحياة لا يمكن أن تسير على نمط واحد، فلا بد مـــن تغـــيير وتجديد في مختلف الميادين الحياتية لتحقيق الرخـــاء والأمـــن والصـــلاح: ﴿وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۚ﴾ (آل عمران:١٠٤). كما لا بد من انفتاح مثمر على المحيط العالمي والواقع البشري من أجل الاستفادة والتواصل والتبليغ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ﴾ (الحجرات:١٣).

وفقه الواقع وإدراك شروطه، الذي تتحرك فيه حركـــات التغـــيير، وتحسينه والانطلاق منه، باكتشاف سنن المداولـــة والمدافعـــة، ووعيهـــا واستفراغ الوسع في الأخذ بأسبابـــها، أمر أساس في التغيير والإصـــلاح،

إذ أنه (أي فقه الواقع) «لا يتحصل إلا بتوفر مجموعة من الاختصاصات في شعب المعرفة، تحقق التكامل والعقل الجماعي، حتى إننا لنعتقد أن الفقه الصحيح للنص في الكتاب والسنة، يقتضي فهم الواقع، محل النص، في ضوء الاستطاعات المتوفرة.. وفي تقديرنا أن هذه هي المعادلة المطلوبة اليوم لقضية الاجتهاد، حتى يسترد العقل عافيته، والاجتهاد دوره، والوحي مرجعيته، ويُقوِّم الواقع بقيم الدين، فهماً وتنزيلاً»[1].

وأي حركة تغييرية تستلزم بناء داخلياً واضحاً ومتيناً، لأن الواقع الخارجي ما هو إلا انعكاس للتكوين والمرجعية، فبقدر ما تكون الحركة متماسكة داخلياً وواضحة في رؤاها وتصوراتها بقدر ما تستطيع تحقيق أهدافها داخل المجتمع. والبناء قد يبدأ من الفرد الواحد الذي يمكن بصلاحه ومتانة أدواته أن يمثل نواة لمجتمع جديد، كما يخبر بذلك سبحانه عندما يطلق على إبراهيم، عليه السلام، كلمة ﴿أُمَّةً﴾ في قوله: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا﴾ (النحل:١٢٠).

فالإنسان مدار أي حركة تغيرية ومحورها، توكل إليه مهمة التغيير والبناء والتجديد وتحقيق الخلافة على هذه الأرض، وتلفت نظره إلى

(١) مقدمة عمر عبيد حسنه، لكتاب الأمة (٦٦): نور الدين بن مختار الخادمي، الاجتهاد المقاصدي، حجيته، ضوابطه، مجالاته (الدوحة: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ١٩٩٨م) ١٨/٢.

الكدح وكيفيات التعامل مع الكون والحياة واستغلال الأرض بالاستفادة من عنصري الزمن لإنتاج الحضارة وعمارة الأرض حملاً لأمانة الاستخلاف وتحقيقاً للعبودية التي خلق لأجلها.

من هنا ينبغي أن تتكامل في شخصية المسلم كل الأبعاد الأخلاقية والمعرفية والسلوكية والاجتماعية والثقافية والتربوية والإنجازية، كي يستطيع كسب استراتيجية الإحسان إلى المجتمع والتعامل معه بالحسنى وحمله على التغيير عن وعي ورشد، لأن القاعدة القرآنية كما يرى د.يوسف القرضاوي تقول: غير نفسك أو غير ما بنفسك يتغير التاريخ. يقول تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ ﴾ (الانشقاق:٦) فالكدح في هذه الحياة،كيفما كانت درجته أو طبيعته، من سنن الله، ولا مناص لأي إنسان عنه حتى يصل إلى نهايته وهي لقاء الله عز وجل. وفي خضم الكدح، تنبت عمليات التغيير داخل الإنسان، فإذا كان التغيير واعياً ومسؤولاً، فهو ارتقاء نحو إثبات الاستخلاف الإنساني في الأرض، وإن كان غير ذلك كان إما استكباراً وطغياناً، أو تخلفاً وهواناً.

وليس المقصود بالتجديد والتغيير هدم ما كان، وإنما الانطلاق مما سبق لتصحيحه وتقويمه، إعادة بناء ما اندثر من معالم الصلاح فيه، ومتابعة البناء فوق كل ذلك. وهذه مسؤولية كل فرد من أفراد المجتمعات

الإسلامية، وخاصة حين نعلم بأن هذه المسؤولية لم تغب عن هذه المجتمعات إلا في العصور المتأخرة بعد أن نشب التخلف وما جر من تواكل وتقاعس ولا مبالاة.

وربما كان هذا الخلل الخطير ناجماً عن فقدان الروح الجماعية، أو على الأقل اضمحلالها في النفوس.. «فطول الهوان الذي أصاب الأمة، أصبح كل واحد منا يعيش في برجه أو يعيش في همه. ولم يعد الحس الإسلامي حساً جماهيرياً، ولذلك ينبغي - حلاً للمشكلة - إيقاظ العامة، لأن جماهير الأمة هم درع الإسلام وقوته.. لا بد أن نحرك الأمة بجميع أفرادها إلى هذا المعنى، إلى استشعار قضاياها.. وهذا أمر هام جداً.. لكن من المؤسف أن نجد المتحدثين والمتكلمين يتحدثون عن قضايا جزئية، ولا يربطون الأمة بقضاياها الكلية والمصيرية»(١)، ويستنزفون الطاقات المهدرة ويستهلكونها في التصفيق والصراخ والهتافات الساخنة أو الباردة. فبالرغم أنهم يستطيعون تجميع الناس واستثارة عواطفهم، إلا أن القلة القليلة منهم هي القادرة على إعادة بنائهم وتشكيل عقولهم وصناعتها من جديد وتوظيف طاقاتهم، واستثمارها في البناء والعطاء، والاستفادة منها في سد احتياجات الأمة.

---

(١) أحمد العسال، مقومات التغيير، ضمن كتاب: فقه الدعوة ، ملامح وآفاق، مجموعة حوارات قام بإجرائها عمر عبيد حسنه، ونشرت في سلسلة «كتاب الأمة»، ص٤٦.

وبذلك نجد أن سواد المسلمين الراجعين إلى الله رغم تكاثرهم، وإعلان توبتهم، إلا أنهم ضلوا الطريق إليه سبحانه، فسلكوا إما طريق الانزواء والبعد عن الدنيا والجهل بها، أو سلكوا طريق العنف والتكفير. كما نجد ثلة من المخلصين الذين لا يجدون متنفساً لتطبيق تصورهم الإسلامي الصحيح في المجتمعات الإسلامية بسبب الهوة الواسعة بينهم وبين صانعي القرار في هذه المجتمعات. ويعد كل هذا من ضمن التحديات الكبيرة التي تواجهها الأمة، وأكبر عقبة في طريق نهوضها ورقيها.

ولا شك أن المنهج الرباني في التغيير والبناء الحضاري، وتطبيقات الأنبياء والمرسلين له، في التعامل مع الواقع، قد استوعب، ومر بالحالات كلها، التي يمكن أن تعرض لها المجتمعات البشرية بشكل عام، والإسلامية بشكل خاص، نهوضاً وسقوطاً وحركة وركوداً، وامتلك الحلول والإجابات الكاملة، لأصول المشكلات الإنسانية والاجتماعية، وكيفيات التعامل معها.

ويستوقفنا في هذا المجال ممارسة نبوية فاعلة ضمن الممارسات الأخرى التي مارسها الرسل والأنبياء حققت التغيير والتجديد في واقعهم، يقول تعالى: ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ﴾، ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ﴾، ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن

﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٨٧ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ﴾، ﴿وَزَكَرِيَّآ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرۡنِي فَرۡدٗا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ۝٨٩ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ﴾ .. إنها ممارسة الدعاء المخلص الصادر من القلب، إلى جانب السعي والكد، يحقق فضل الاستجابة من الله عز وجل ﴿فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ﴾ .. ويقول تعالى في حديث قدسي: «**وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ**»[1].

وإلى جانب تصحيح العقيدة وتغيير الأنفس هناك العلم والعمل، يقول تعالى: ﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلۡنَا مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَأَنزَلۡنَا ٱلۡحَدِيدَ فِيهِ بَأۡسٞ شَدِيدٞ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ﴾ (الحديد:٢٥).

٤- العمل:

أثار كثير من الذين تعاملوا مع مفهوم الدعاء ودلالاته تعاملاً منفصلاً عن بقيّة مفاهيم الإسلام شكوكاً حوله، باعتباره دعوة إلى فرض الدور السلبي على حياة الإنسان، وتجميد طاقاته، وشلّ نشاطاته، ووسيلة للاتكالية، وإشاعة روح الكسل والخمول في واقعه، وعدم ممارسته لدوره وواجبه، بالاعتماد الغيبي على الله. فالدعاء في رأي هؤلاء انسحاب كامل

---

(١) أخرجه البخاري.

لقوى الإنسان وجهوده في ميدان العمل والإبداع، وتعليق إنجاز المهام المنوطة به على الله تعالى، لينتهي بذلك دور الإنسان الحضاري، ويحكم على أمته بالجمود والفناء. وقد يبدو هذا التصور صحيحاً إذا فهم المسلم الدعاء مبتوراً عن صورته الكلية، ومنبتاً عن مجاله المعرفي وأبعاده الزمانية والمكانية، وإذا لم يلتفت إلى السنن الكونية في الخلق، ولم ينفعل بقوى الحركة والفعل في المجتمع، فتضيع بالتالي جهود البناء والإصلاح والتغيير. إلاّ أنّ الفهم الصحيح للإسلام بوحدة أفكاره وشمولية مفاهيمه، يعد ردّاً حاسماً على مثل هذه الشبهات.

إن الله تعالى حينما شرّع الدعاء لم يكن في معناه تعطيل قوانين المسببات في الكون والخلق، لأنه ما من شيء يتحقق إلاّ ويحتاج الى سبب، وما من حادث يحدث إلاّ وله محرّك. وتعطيل دور الإنسان مخالفة لحكمة الله وإرادته وعقيدة التوكل، وتعارض مع إجابة الدعاء، لذلك شرّع العمل أيضاً، وألزم الإنسان به، وبيّن سبحانه مسؤوليته وواجبه المترتب عليه. وكما رفض الإسلام تعطيل الأسباب ودور الإنسان العملي في الحياة، رفض اللجوء إلى الأوهام والخرافات في معالجة المواقف، وتحصيل الأشياء التي يريد الحصول عليها، لأنها ليست من قوانين الطبيعة، ولا من أنظمة الوجود التي أودعها الله في هذا العالم، وليس لها أي دور تأثيري في الواقع.

وفي القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف عدد كبير من النصوص الحاثة على العمل وعدم التهاون فيه لمن أراد العزة والنصر والتمكين، منها قوله تعالى يدعو للاستعداد واكتساب القوة: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ﴾؛ وقوله في كيفية صلاة الخوف: ﴿وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ﴾، وقوله لموسى، عليه السلام، منبهاً له على التحصّن بالليل اختفاءً عن أعين الاعداء، ودفعاً للضرر: ﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِى لَيْلًا﴾؛ وقوله في خطابه تعالى للمنافقين، مزاوجاً بين الإرادة والعمل: ﴿وَلَوْ أَرَادُواْ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّواْ لَهُۥ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُواْ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ﴾ (التوبة:٤٦)؛ وقوله رابطاً العمل الصالح بالمنفعة: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ (النحل:٩٧). والعمل الصالح هنا لا يقتصر على العبادات، وإنما ينسحب على كل عمل مقترن بشروط الصدق والإخلاص، ويحقق مصلحة للعباد.

والناظر لهذه الآيات وغيرها يدرك أهمية العمل في الإسلام، والترغيب فيه، والحث عليه، وربطه تعالى المسبّبات بالأسباب، ولذا نجد أنه لما أهمل الاعرابي بعيره، وقال: توكّلت على الله، قال له النبي ﷺ:

«اعْقِلْهَا وَتَوَكَّلْ»[1]. بل إنه عليه الصلاة والسلام يُعبّد طريقاً واحداً يربط الدنيا بالآخرة، والعمل بالعبادة فيقول: «إِنْ قَامَتِ السَّاعَةُ وَبِيَدِ أَحَدِكُمْ فَسِيلَةٌ فَإِنِ اسْتَطَاعَ أَنْ لا يَقُومَ حَتَّى يَغْرِسَهَا فَلْيَفْعَلْ»[2].

وهذه الرؤية في المنهج النبوي جعلته ﷺ يتعامل مع توجيهات الوحي ومدركات العقل تعاملاً متكاملاً، فيأخذ بالأسباب، ويتحمل مسؤولية عمله، متوكلاً على الله، مستفرغاً وسعه في الدعاء والتضرع، وانتظار العون والمدد منه سبحانه.

وقد جاء قول الله الحق صريحاً واضحاً للكشف عن دور العمل في حياة الإنسان، ومسؤوليته عنه وتعميقه في نفسه، يقول تعالى: ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَـٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴾ (النجم:٣٩) . وورد في الحديث الشريف ما يرادف هذا المعنى، ويؤكد مسؤولية الإنسان، وإذن فليس بإمكان أحد بعد هذا الإيضاح أن يقول: إنّ الإسلام دعا إلى الاتكالية والكسل، وعطّل الأسباب والقوانين الطبيعية للحياة، فكلّ ما جاء في الإسلام دعوة إلى الجدّ وممارسة المسؤولية والسير بالحياة وفق قوانين الطبيعة وسننها التي أودعها الله في هذا العالم.

---

(١) أخرجه الترمذي، وقال: هَذَا حَدِيثٌ غَرِيبٌ.. والحديث عن أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، يَقُولُ: قَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَعْقِلُهَا وَأَتَوَكَّلُ أَوْ أُطْلِقُهَا وَأَتَوَكَّلُ؟ قَالَ: «اعْقِلْهَا وَتَوَكَّلْ».

(٢) أخرجه الإمام أحمد.

وعندما نسلم بهذه الحقيقة الفاعلة في دنيا الإنسان ندرك أن عليه واجباً ومسؤولية، وأنه إذا أراد إنجاز شيء ما، وسعى لتحقيقه بالأسباب المادية دعا الله سبحانه لإعانته على ذلك، وهنا يأتي العون الإلهي متمثلاً بتوفيق الله الإنسان لإصابة الأسباب الملائمة، وتأهيلها لإعطاء النتائج المرجوَّة. ولنا في القرآن الكريم والسيرة النبوية والتاريخ الإسلامي شواهد تعزز ارتباط العمل بالدعاء، والتوفيق الذي يكون بهما معاً. يقول تعالى مخبراً عن طالوت وجنوده قبل بداية المعركة مع جالوت: ﴿وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُواْ رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرًا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ (البقرة: ٢٥٠) وبعد هذا الدعاء، كان الجواب من الله: ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ﴾ (البقرة: ٢٥١)، فالنصر كان حليفهم حين دعوا الله وتوكلوا عليه، بعد تحملهم مسؤولية الأخذ بالأسباب المادية، والسعي لتحقيقها على أرض الواقع بإذن الله وتوفيقه بعد الدعاء والتوكل عليه سبحانه.

والسيرة النبوية تقف كلها شاهدة على سعيه ﷺ وجده في العمل مع التوكل على الله ودعائه والتضرع إليه في كل لحظة من لحظات حياته. ولعل قصة النعمان بن مقرن في سنة إحدى وعشرين في التاريخ الإسلامي تحكي عن تكامل العمل والدعاء في حياة المسلمين، وعدم الفصل بينهما، فبعد أن تحصن الفرس بخنادقهم، وطال حصار المسلمين لهم، استشار

النعمان قادته، فأشاروا عليه باستدراج الفرس والتظاهر بالهروب حتَّى إذا ابتعد الجند عن حصونهم وخنادقهم نشبت المعركة، ووافق النعمان على الخطة، وقال لهم: إني مكبر ثلاثاً فإذا كان الثالثة فابدؤوا بالقتال، وهنا لم ينس النعمان الاتصال الروحي مع الله، فقد ذهب النعمان إلى أحد الأمكنة ودعا الله قائلاً: «اللهم اعزز دينك، وانصر عبادك، اللهم إني أسألك أن تقر عيني بفتح يكون فيه عز الإسلام، واقبضني شهيداً»، وبكى الناس مع النعمان وابتهلوا إلى الله وتضرعوا، واستجاب الله دعاءهم فنصرهم على عدوهم نصراً عظيماً، واستجاب الله دعاء النعمان بن مقرن، فكان أول قتيل من المسلمين على أرض المعركة، رضي الله عنه[1].

إن عمل المسلم في الحضارة الإسلامية إبان ازدهارها تفاعل لا ينقطع وتدافع بين الحق والباطل لا يتوقف، استعانة بالأسباب مع مصاحبة الدعاء في أي وقت من الأوقات، مقتدياً بحبيبه المصطفى ﷺ الذي كان الدعاء يدخل في كل شعبة من شعب حياته الجليلة، فلم يستغن أبداً عن شرب هذا الشراب الكوثري، الذي يحفزه على العمل. يقول ابن القيم الجوزية: «كان النبي ﷺ أكمل الخلق ذكرا لله عز وجل، بل كان كلامه كله في ذكر الله وما والاه، وكان أمره ونهيه وتشريعه للأمة ذكراً منه لله، وإخباره عن أسماء الرب وصفاته، وأحكامه وأفعاله، ووعده ووعيده،

---

(١) البداية والنهاية، ٨٩/٧.

ذكرا منه له، وثناؤه عليه بآلائه، وتمجيده وحمده وتسبيحه ذكراً منه له، وسؤاله ودعاؤه إياه، ورغبته ورهبته ذكراً منه له، وسكوته وصمته ذكراً منه له بقلبه، فكان ذاكراً لله في كل أحيانه، وعلى جميع أحواله، وكان ذكره لله يجري مع أنفاسه، قائماً وقاعداً وعلى جنبه، وفي مشيه وركوبه ومسيره، ونزوله وظعنه وإقامته». وبذلك يمتد الإسلام بما يتَّسِم به من الشمول والاتساع والمرونة امتداداً يتناول كل أطراف الحياة ومناحيها من القضايا والمشكلات والأمور، فهو يمتد ليشمل فرائض ومندوبات شتى يؤجر فاعلها من الله أجراً كبيراً[1].

وهناك سؤال يلح على أفئدة بعض الداعين، تتشدق به أفواههم، وهو: لماذا لا تستجاب كل الدعوات وتردّ في أشدّ ظروف الإنسان محنة وحرجاً؟

إن استجابة الدعاء مرهونة بمشيئة الله تعالى، ومع ذلك فهناك شروط يجب على الداعي تهيئتها قبل الدعاء، ثم يترك لله بعد ذلك ظرف استجابته، سواء في الدنيا أو في الآخرة. وهذه الشروط منها ما هو ذاتي يرتبط بالإنسان الدّاعي نفسه، ومنها ما هو موضوعي يرتبط بأسباب المسألة التي يدعو المؤمن لتحقيقها، ومنها ما هو رباني يتعلق بحكمة الله وعلمه بمصالح العباد.

---

(١) أمير عبد العزيز، الإنسان في الإسلام ، ص ٦٠.

فالشرط الذاتي يستدعي الثقة المطلقة بالله عز وجل، واليقين بإجابته، حيث تكون الذات الإنسانية تتطلع للوصول إلى علاقة قوية مع الله تعالى والارتباط به سبحانه، تؤهلها لرفع الدعاء إليه، واستقبال فيوضات رحمته الربانية، واستحقاق القبول منه تعالى، فعن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**ادْعُوا اللَّهَ وَأَنْتُمْ مُوقِنُونَ بِالْإِجَابَةِ، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ لا يَسْتَجِيبُ دُعَاءً مِنْ قَلْبٍ غَافِلٍ لاهٍ**»[1]. وقال أيضاً في استجابة الله: «**إِنَّ اللَّهَ حَيِيٌّ كَرِيمٌ يَسْتَحْيِي إِذَا رَفَعَ الرَّجُلُ إِلَيْهِ يَدَيْهِ أَنْ يَرُدَّهُمَا صِفْرًا خَائِبَتَيْنِ**»[2]. ومثل هذه العلاقة تنبني على الإيمان المطلق بالله والاستجابة والإخلاص له: ﴿فَٱدْعُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ (غافر:١٤)، الأمر الذي يعني الالتزام بشريعته ومنهجه، وضرورة تفعيل قيم ومبادئ ومفاهيم القرآن في ممارساتنا بقناعة وثقة مطلقة بوعد الله، يقول تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِى وَلْيُؤْمِنُواْ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ (البقرة:١٨٦).

فإجابة الدعاء مرتبطة بالاستجابة لله والإيمان به أي أن العون الإلهي هو ترشيد الإنسان وهدايته إلى أسباب نجاح دعوته، وإعانته على إنجازها،

---

(١) أخرجه الترمذي، وقال: هذا حديثٌ غريبٌ .
(٢) أخرجه الترمذي، وقال: هذا حديثٌ حسَنٌ غريبٌ.

وبالتالي يكون الدعاء تعبير عن إيمان المسلم، وإعلانه بأن الله هو خالق كل شيء، وهو مالك كل شيء، وإقراره بفقره إلى الله، وعدم استغنائه عنه، واقتلاع جذور الغرور والكبرياء من أعماقه، والتوبة من الذنوب والمعاصي، وعدم تعجيل الإجابة، يقول رسول الله ﷺ: **«يُسْتَجَابُ لأَحَدِكُمْ مَا لَمْ يَعْجَلْ يَقُولُ: دَعَوْتُ فَلَمْ يُسْتَجَبْ لِي»**[1]، ويقول: **«لا يَزَالُ يُسْتَجَابُ لِلْعَبْدِ مَا لَمْ يَدْعُ بِإِثْمٍ أَوْ قَطِيعَةِ رَحِمٍ مَا لَمْ يَسْتَعْجِلْ.. قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا الاسْتِعْجَالُ؟ قَالَ: يَقُولُ قَدْ دَعَوْتُ وَقَدْ دَعَوْتُ فَلَمْ أَرَ يَسْتَجِيبُ لِي، فَيَسْتَحْسِرُ عِنْدَ ذَلِكَ وَيَدَعُ الدُّعَاءَ»**[2] .

قال ابن حجر: «وفي هذا الحديث أدب من آداب الدعاء، وهو أن يلازم الطلب، ولا ييأس من الإجابة؛ لما في ذلك من الانقياد والاستسلام وإظهار الافتقار»[3]. وقال ابن القيم: «ومن الآفات التي تمنع أثر الدعاء أن يتعجل العبد ويستبطئ الإجابة فيستحسر ويدع الدعاء، وهو بمنزلة من بذر بذراً أو غرس غرساً فجعل يتعاهده ويسقيه، فلما استبطأ كماله وإدراكه تركه وأهمله»[4].

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الدعوات.

(٢) أخرجه مسلم، كتاب الذكر والدعاء .

(٣) فتح الباري، ١٤١/١١.

(٤) الجواب الكافي، ص ١٠.

أما الشرط الموضوعي فيستدعي تهيئة الظروف والأسباب المصاحبة للدعاء، من ذلك مثلاً تحري الحلال في كل مستلزمات الحياة، من مأكل وملبس وغيرهما، قال رسول الله ﷺ : **«أيُّها النَّاسُ، إنَّ اللَّهَ طَيِّبٌ لا يَقْبَلُ إلا طَيِّبًا، وَإِنَّ اللَّهَ أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بمَا أَمَرَ به الْمُرْسَلِينَ فَقَالَ:** ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَـٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ (المؤمنون:٥١)، **وَقَالَ:** ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا رَزَقْنَـٰكُمْ﴾ (البقرة:١٧٢)، **ثُمَّ ذَكَرَ الرَّجُلَ يُطِيلُ السَّفَرَ أَشْعَثَ أَغْبَرَ يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ: يَا رَبِّ يَا رَبِّ، وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ، وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ، وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ، وَغُذِيَ بِالْحَرَامِ، فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ»**[1].

فالعمل على الأخذ بالأسباب شرط أساس من أجل استجابة الدعاء، فالمريض مثلاً عليه التداوي بالطب وأخذ الدواء مع الدعاء وطلب الشفاء منه تعالى، أما التقاعس عن أخذ الدواء والاتكال على الدعاء، فهذا غباء وسلبية ينهى عنها الإسلام، لأن الله تعالى جعل بحكمته علاقة بين الأشياء وأسبابها، ويأتي دور العون الإلهي في هذه الحالة متمثلاً بتوفيق الله الإنسان لإصابة الأسباب الملائمة، وتأهيلها لإعطاء النتائج المرجوَّة، يقول ابن القيم: «الرجاء وحسن الظن إنما يكون مع الإتيان بالأسباب التي

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب الزكاة.

اقتضتها حكمة الله في شرعه وقدره وثوابه وكرامته، فيأتي العبد بها ثم يحسن ظنه بربه ويرجوه ألا يكله إليها، وأن يجعلها موصلة إلى ما ينفعه، ويُصرف عما يعارضها ويبطل أثرها».[1]

أما الشرط الرباني فيستدعي عدم مخالفة الدعاء لحكمة الله ومشيئته تعالى لأنه يجب ألا يغيب عن ذهن الداعي أن مشيئة الله سبحانه هي النّافذة، وإرادته هي الغالبة، وليس للأسباب والقوانين الطبيعية دور الحتمية إذا شاء الله سبحانه الاستجابة أو عدمها: يقول تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ (يس:٨٢)، ويؤمن بأن الخالق للأسباب والقوانين الطبيعية قادر على أن يغيّر ويبدّل ما يشاء بقدرته، وأن يوفّق الإنسان بعد عجزه إلى اكتشاف السبب الذي يوصله إلى تحقيق غايته، أو يحجبها عنه إذا كانت مصلحته في ذلك حسب علم الله، إذ كثيراً ما يدعو الإنسان لتحقيق شيء وهو لا يحسن تقدير نتائجه، ولا طبيعة آثاره في حياته، أو في مجتمعه، كما أنه قد يلح بالطلب، ويرفع صوته بالدعاء والابتهال في التخلص من شيء، وهو لا يعلم أن مصلحته فيما يرفض، وخيره فيما يدعو الله للخلاص منه، فكل ذلك خاف على الإنسان لعدم قدرته على معرفة الغيب، أو الاطلاع على نتائج ما يريده ويطلبه.

---

(١) الداء والدواء، تحقيق مصطفى بن العدوي، ط١، ٢٠٠١م، ص٥٦.

كما قد يستدعي الشرط الرباني تأخير إجابة الدعاء لكي يلح الداعي أكثر على ربه، وهناك أحاديث مرفوعة في هذا المجال، ذلك أن الإلحاح في الدعاء يعقبه الانكسار بين يديه سبحانه. وقد تقتضي حكمة الله ومشيئته عدم إجابة الدعاء رغم توفر الشرط الذاتي والشرط الموضوعي، لكنه تعالى إما يدخر لصاحبه ثوابه في الآخرة، أو يخفف عنه بلاءً في الدنيا.

وفي نصٍ لابن القيم الجوزية يجمع فيه بعض شروط استجابة الدعاء ويبين أوقات الاستجابة ويشرح بعض آداب الدعاء يقول فيه:

«إذا اجتمع مع الدعاء حضور القلب وجمعيته بكليته على المطلوب، وصادف وقتاً من أوقات الإجابة الستة، وهو الثلث الأخير من الليل، وعند الآذان، وبين الآذان والإقامة، وأدبار الصلوات المكتوبات، وعند صعود الإمام يوم الجمعة على المنبر حتى تقضى الصلاة من ذلك اليوم، وآخر ساعة بعد العصر، وصادف خشوعاً في القلب، وانكساراً بين يدي الرب، وذلاً له وتضرعاً ورقة، واستقبل الداعي القبلة، وكان على طهارة، ورفع يديه إلى الله تعالى، وبدأ بحمد الله والثناء عليه، ثم ثنى بالصلاة على محمد عبده ورسوله ﷺ، ثم قدم بين يدي حاجته التوبة والاستغفار، ثم دخل على الله وألح عليه في المسألة، وتملقه ودعاه رغبة ورهبة، وتوسل إليه بأسمائه وصفاته وتوحيده، وقدم بين يدي دعائه صدقة، فإن هذا الدعاء لا يكاد يُردّ أبداً، ولا سيما إن

صادف الأدعية التي أخبر بها النبي ﷺ أنها مظنة للإجابة، أو أنها متضمنة للاسم الأعظم»[1].

وأكثر مواطن الاستجابة موطن السجود، لقول النبي ﷺ: «... فَأَمَّا الرُّكُوعُ فَعَظِّمُوا فِيهِ الرَّبَّ عَزَّ وَجَلَّ، وَأَمَّا السُّجُودُ فَاجْتَهِدُوا فِي الدُّعَاءِ، فَقَمِنٌ أَنْ يُسْتَجَابَ لَكُمْ»[2].

وأفضل أوقات الدعاء جوف الليل لقوله ﷺ: «أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الرَّبُّ مِنَ الْعَبْدِ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ الآخِرِ، فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَكُونَ مِمَّنْ يَذْكُرُ اللَّهَ فِي تِلْكَ السَّاعَةِ فَكُنْ»[3]، وقوله عليه الصلاة والسلام، عن أبي هريرة، رضي الله عنه: «يَنْزِلُ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الآخِرُ، يَقُولُ: مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ، مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ، مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ »[4].

وفي رواية للطبراني عن أبي أمامة، رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «تُفتح أبواب السماء ويُستجاب الدعاء في أربعة مواطن: عند التقاء الصفوف في سبيل الله، وعند نزول الغيث، وعند إقامة الصلاة، وعند رؤية الكعبة».

---

(١) الداء والدواء، مرجع سابق. ص ١٥.

(٢) أخرجه مسلم، كتاب الصلاة.

(٣) أخرجه الترمذي، وقال: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.

(٤) أخرجه البخاري، كتاب الجمعة.

الدعاء المستجاب

تكثر الآيات التي تدخل في إطار الدعاء، في الخطاب القرآني والحديثي، كان النبي ﷺ يدعو بها، ويدعو إلى الدعاء بها، إلا بعض الأدعية القرآنية الخاصة، من مثل دعاء موسى، عليه السلام، في قوله تعالى: ﴿اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِّنكَ﴾ (المائدة:١١٤)، فهذا دعاء خاص بموسى لقومه ليس للمسلم فيه سوى ثواب التلاوة والتدبر. ويمكن تصنيف نصوص الدعاء حسب دلالاتها العامة، إلى أقسام:

القسم الأول: تصنيف نصوص الدعاء القرآني

إن المتأمل في نصوص الأدعية الواردة في القرآن الكريم وفي الحديث النبوي الشريف يدرك أهمية الدعاء وقيمته الفكرية والنفسية والروحية التي تتغلغل في حياة الإنسان، وتتحول سلوكاً ومواقف إنسانية، تسري معانيها في محيطه ومحيط جماعته البشرية. ومع استفاضة دلالات الدعاء وتشعبها، وتنوعها أيضاً في النص الواحد، فإنه يمكن تصنيفها في محاور تجمع معانيها التي تنتمي إلى حقول دلالية متشابهة ومتقاربة.

المحور الأول: دلالات الهداية:

غني عن الذكر بأن القرآن الكريم كتاب هدى وهداية قبل كل شيء، لذلك كانت القاعدة العامة التي يقوم عليها تصب في مجالين اثنين: مجال المهتدين بهدايته والطريق التي أوصلتهم إلى الله تعالى، ومجال المحرومين من هدايته، والسبل التي انحرفت بهم عنه سبحانه، يقول تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ (البقرة:٢)، ويقول تعالى بأسلوب التأكيد: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾ (الإسراء:٩)، ويقول: ﴿يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ (المائدة:١٦).

ويَرِد ذكر الهداية وحقول دلالاتها المرتبطة بالخير والنعمة والرشد والاستقامة والأمن والاعتصام والمجاهدة منذ مطلع القرآن الكريم في سورة الفاتحة حتى نهايته في سياقات مختلفة، ترتبط بالعقيدة والشريعة والسلوك والأخلاق. ويجمع دعاء الفاتحة في قوله تعالى: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ (الفاتحة:٦-٧) كل هذه السياقات لأنه طلب معرفة الحق والعمل به في جميع التفاصيل الدينية والدنيوية. ولهذا كان هذا الدعاء، كما يذهب إلى ذلك معظم المفسرين والعلماء الذين تعرضوا له، من أجمع

الأدعية وأنفعها للعبد. فرضه تعالى عليه في كل ركعة من صلاته، لأهمية تأثيره في الدنيا والآخرة.

وتأتي الأدعية الأخرى المرتبطة بدلالات الهداية في القرآن الكريم بوصفها معالم تربوية، تقوم على دعائم التكرار المستمر للقيم والفضائل وأنماط السلوك، لترسيخها في عقل الإنسان، بأساليب وصيغ مختلفة وأفكار متجددة، لكن يبقى المعنى الأساس قائم في قلب تلك الأساليب والصيغ والأفكار يشير إلى أن أي هداية إلى الصراط المستقيم لا تكون إلا بالاستعانة بالله عز وجل وتوفيقه، وأن مجمل الأدعية الواردة في مجال الهداية تسعى إلى إعادة صياغة الإنسان وفق قيم جديدة، وفي إطار سلوك قويم يقوده إلى الصراط المستقيم.

ويمكن تصنيف الأدعية التي تصب في دلالات الهداية حسب ورودها في القرآن الكريم على النحو التالي:

- يقول تعالى على لسان إبراهيم، عليه السلام، بصيغة الجمع لتثبيت مفهوم الوحدة والجماعة وترسيخ استمرارية الهداية والصلاح: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ (البقرة:١٢٧-١٢٩).

جمع إبراهيم، عليه السلام، في دعائه بين ستة من أسماء الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ (الأعراف: ١٨٠)، واصفاً إياه بصفات السمع والعلم والتوبة والرحمة والعزة والحكمة لتعليل طلب القبول: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ وتوسل هدى الله وتوفيقه في النفس والذرية الموصلان للتوبة والرحمة ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾، الموجبان لاستمرار الهداية وتزكية النفس، وإحاطتها بالعلم والعزة والحكمة.

- ويقول تعالى على لسان زكريا، عليه السلام، في سياق إثبات قدرة الله ومَنِّه، طالباً منه ذرية مهتدية بهديه: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ (آل عمران.٣٨).. فالذرية الطيبة الموصولة بالله عز وجل لن تكون كذلك إلا بهدى من الله وتوفيقه.

- ويقول تعالى على لسان الحواريين: ﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ (آل عمران:٥٣)، و﴿ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ حسب قول ابن عباس، رضي الله عنهما، هم أمة محمد ﷺ، وكما يقول الطبري: الذين شهدوا بالحق وأقروا لله بالتوحيد.. والإقرار بالإيمان واتباع هَدْي رسول الله ﷺ يدفع المؤمن لطلب مرافقة الشاهدين للأنبياء بالحق والصدق، والتأسي بهم، لاكتساب القدرة على الاستقامة كما استقاموا حين أخذ الله منهم عهد اتباع الرسول الذي يأتي من بعدهم ونصرته، يقول تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ

وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى قَالُوٓاْ أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُواْ وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ (آل عمران:٨١).

- يقول تعالى في سياق الحديث عن أحوال أولي الألباب الذين يتفكرون في عظمة الله كل لحظة من لحظات حياهم، ويستنجزون وعد الله: ﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ (آل عمران:١٩٣-١٩٤).

- ويقول تعالى: ﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ (المائدة:٨٣).

إن معرفة الحق تورث المؤمن أملاً في اللحاق بالصالحين والمهتدين، يقول تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ (البقرة:١٤٣).. الشهادة تكون للإنسان الحضاري الفاعل، الذي يؤدي دور الخلافة، وليس المنزوي في أذيال التاريخ والزمن.

- ويقول رب العزة على لسان إبراهيم، عليه السلام: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾ رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ

فَٱجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِيٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٣٨﴾ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾ رَبِّ ٱجْعَلْنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ﴾ (إبراهيم: ٣٥-٤١).

ودعاء إبراهيم، عليه السلام، يشمل طلب الهداية والأمن، وقد استجاب الله تعالى لرسوله في قوله: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾ (آل عمران: ٩٦-٩٧).

- يقول تعالى على لسان موسى، عليه السلام، في سياق حديثه عن تبليغ رسالته: ﴿رَبِّ ٱشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِيٓ أَمْرِي ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِي﴾ (طه: ٢٥-٢٨).

- ويقول تعالى: ﴿رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ (طه: ١١٤). والدعاء بالعلم يأتي بالهداية.

- ويقول تعالى: ﴿رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ (الفرقان: ٧٤). وهنا يتكرر طلب الزوج الصالح والذرية الطيبة لما لهما من تأثير على استقرار المؤمن وإعداده

للدخول في زمرة المتقين، واستمرارية النسل المهتدي بهدي الله.

- ويقول تعالى: ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ (الشعراء:٨٣)؛ ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (الصافات:١٠٠).

والدعاء بالصلاح يدخل في إطار الهداية والتوفيق.

هذه الأدعية القرآنية، التي وردت على لسان الأنبياء والصالحين، تؤكد أن أسمى غاية يرجوها الإنسان المسلم هي هداية الله وتوفيقه، وأن يهبه سبحانه الصلاح من عنده.

المحور الثاني: دلالات الرحمة:

تنتمي الرحمة إلى حقول دلالية متعددة منها التفضل والإحسان والمغفرة والعطف والعفو، ويراد بها إرادة الله تعالى إيصال الخير والثواب لمن يشاء من عباده، ولذلك كان من صفاته الرحمن الرحيم. ورحمته تعالى في الدنيا شاملة للمؤمن والكافر، والصالح والطالح، وذلك بإيصال الرزق، وخلق الصحة، ودفع الأسقام والمصائب ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ (الأعراف:١٥٦). كما أنه سبحانه خلق الكون والكائنات بالرحمة، فقال: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾، وبعث رسول الله ﷺ بالحق ورحمة لكل العالمين، يقول تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ (الأنبياء:١٠٧)، وإذا كانت الرحمة تعني النعمة والخير فإن المغفرة تعني الستر بعد المعصية.

وصفة الرحمة من الصفات التي ينبغي على المسلم الاتصاف بها، كي يستطيع التعايش مع كل الناس مهما كانت انتماءاتهم أو توجهاتهم، والتأثير فيهم برحمته وعطفه وعفوه. وقد كانت رحمة النبي ﷺ من أهم صفات شخصيته، تطبع فكره وذوقه ووجدانه، وتفيض بها أخلاقه ومعاملاته وعلاقاته، وتميزت بها دعوته، وكانت من صميم شخصيته، رسولاً ونبياً ومبلغاً عن ربه وهادياً للناس، يقول تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ (التوبة:١٢٨)، فهو ﷺ مثل أعلى للرحمة الإلهية لذلك كان من صفاته الرؤوف الرحيم، كما أنه رحمة شاملة للوجود بأجمعه، ولذلك حين قيل له: ادع على المشركين، قال ﷺ: «**إِنِّي لَمْ أُبْعَثْ لَعَّانًا وَإِنَّمَا بُعِثْتُ رَحْمَةً**»[١].

والأدعية، التي تنطوي على معاني الرغبة في رحمة الله ومغفرته الواسعة والشاملة في القرآن الكريم، على نوعين:

النوع الأول: أن يعرض العبد حاله على رب العالمين دون أن يطلب شيئاً، كدعاء أيوب، عليه السلام، في قوله تعالى: ﴿۞وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ (الأنبياء: ٨٣).

(١) أخرجه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب.

النوع الثاني: أن يعرض العبد حاله وطلبه أيضاً على رب العـــالمين، كما في قوله تعالى: ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴾ (الأعراف:٢٣).

وهذه الأدعية التي وردت في دلالات الرحمة والمغفرة:

- يقول تعالى: ﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾ (البقرة:٢٨٦).

- ويقول تعالى على لسان زكريا، عليه السلام: ﴿ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴾ (آل عمران:٣٨).

- ويقول تعالى، على لسان موسى، عليه السلام: ﴿ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ ۖ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴾ (المائدة.١١٤).

- ويقول تعـــالى: ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴾ (الأعراف:٢٣).

- ومن دعاء شعيب، عليه الســـلام: ﴿ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَـٰتِحِينَ ﴾ (الأعراف:٨٩).

- ويقول بلسان موسى، عليه السلام: ﴿ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ (الأعراف:١٥١)

- ويقول بلسان نوح، عليه السلام: ﴿ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴾ (هود:٤٥)؛ ﴿ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ (هود:٤٧).

- ويقول: ﴿ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴾ (ابراهيم:٤١).

- ويقول تعالى: ﴿ رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا ﴾ (الإسراء.٨٠). وهذا الدعاء، حسب القرطبي، يدخل في كل ما يُتناول من الأمور ويحاول من الأسفار والأعمال، وينتظر من تصرف المقادير في الموت والحياة، يطلب المؤمن فيها الرحمة.

- ويقول تعالى: ﴿ رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴾ (الإسراء:٢٤).

- ويقول تعالى: ﴿ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴾ (الكهف:١٠).

- يقول تعالى على لسان زكريا، عليه السلام: ﴿ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ۝٤ وَإِنِّي

خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ۖ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴾ (مريم: ٤- ٦).

وتدعو مريم: ﴿ رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً ﴾ (مريم: ١٠).

ويقول تعالى على لسان يونس، عليه السلام: ﴿ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ (الأنبياء: ٨٧). وروى سعد ابن أبي وقاص، رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «**دَعْوَةُ ذِي النُّونِ إِذْ دَعَا وَهُوَ فِي بَطْنِ الْحُوتِ: لا إِلَهَ إِلا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ، فَإِنَّهُ لَمْ يَدْعُ بِهَا رَجُلٌ مُسْلِمٌ فِي شَيْءٍ قَطُّ إِلا اسْتَجَابَ اللَّهُ لَهُ**»[١].

- يقول تعالى على لسان زكريا، عليه السلام: ﴿ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴾ (الأنبياء: ٨٩).

- ويقول تعالى: ﴿ رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴾ (المؤمنون: ٢٩).

- ويقول تعالى: ﴿ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ (المؤمنون: ١٠٩).

- ويقول: ﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ (المؤمنون: ١١٨).

- دعاء نوح، عليه السلام: ﴿ رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (الشعراء: ١١٧-١١٨).

---

(١) أخرجه الترمذي والنسائي والحاكم.

- ﴿ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾ رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًۢا ﴾ (نوح:٢٦-٢٨).

- ويقول تعالى: ﴿ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴾ (القصص:١٦-١٧).

- ويقول: ﴿ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ (غافر:٧-٩).

- ويقول: ﴿ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ (الحشر:١٠).

- ويقول تعالى: ﴿ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤﴾ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَٱغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ (الممتحنة:٤-٥).

ويقول تعالى: ﴿ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (التحريم:٨).

دعاء امــرأة فرعــون: ﴿ رَبِّ ٱبۡنِ لِي عِندَكَ بَيۡتٗا فِي ٱلۡجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرۡعَوۡنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِي مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ (التحريم:١١).

إن دلالات طلب الرحمة والمغفرة حاضرة بقوة في هــذه الأدعيــة العديدة، وتكشف أمل وطمع العبد في رضاه سبحانه ورحمته التي وسعت كل شيء.

المحور الثالث: دلالات الصبر:

إن ما يعتري الأمة من أزمات ومصائب ووهن والهــزام، ســواء في الداخل أو الخارج، يكاد يسلم كثيراً من الناس إلى اليأس والإحباط، وإلى النظر إلى واقعهم بعين السخط والتشاؤم، لكن هذا الواقــع لا يجــب أن يفقد الأمة تماسكها ومحاولاتها المستمرة في إنقاذ نفسها، خاصة وأنها تملك مبشرات النصر والتمكين، كامنة في نصوصها الشــرعية، وفي أعمــاق التاريخ، يقــول تعــالى: ﴿ أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَأۡتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِكُمۖ مَّسَّتۡهُمُ ٱلۡبَأۡسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلۡزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصۡرُ ٱللَّهِۗ أَلَآ إِنَّ نَصۡرَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ ﴾ (البقرة:٢١٤).

لذلك، بدلاً من الاستسلام وسلوك دروب التواكل، يجب أن تسلك طريق النصر بعيداً عن اليأس والقنوط، ومن أهم معــالم هــذا الطريــق الصبر، فهو قاعدة إيمــانية مثــمرة، تورث الفاعــلية للخروج من كل ما يعتري الأمة، وارتياد آفاق أفضل، يقول تعــالى: ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ

أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (الزمر:١٠)؛ كما أنه قرين الجهاد في فتح أبواب الدنيا والآخرة، يقول تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾ (آل عمران:١٤٢)؛ وهو عدة المؤمن التي ينال بها الرضا بقضاء الله، عندما يبتلى في نفسه وأهله وماله وأمته، وهو من المبشرين بهدى الله، وأن تغشاه رحمته، ويحظى بصلواته عليه، يقول تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ (البقرة:١٥٥-١٥٧).

من هنا كان النصر الحقيقي يتمثل في الصبر والثبات، والإخلاص في العمل، واستشعار معية الله وحسن الثقة واليقين به سبحانه، وكانت كل الأدعية التي تصب في محور الصبر تعمل على نحته في القلوب والعقول؛ لأنه بدون صبر لا يمكن المضي في طريق تفعيل الإيمان في النفس، والارتقاء بها نحو مختلف القيم الأخلاقية كالصدق والإخلاص وغيرهما، ولذلك قال رسول الله ﷺ: «مَا أُعْطِيَ أَحَدٌ عَطَاءً خَيْرًا وَأَوْسَعَ مِنَ الصَّبْرِ»[1].

وهذه جملة من الأدعية التي تدور حول الصبر وطلب الثبات على الأمر المؤدي إلى النصر:

---

(١) أخرجه البخاري.

- يقـــول تعـــالى: ﴿ رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ (البقرة: ٢٥٠).

- ويقـــول تعـــالى: ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغۡ قُلُوبَنَا بَعۡدَ إِذۡ هَدَيۡتَنَا وَهَبۡ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةًۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ ﴾ (آل عمران:٨) .

- ويقول عز شـــأنه: ﴿ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسۡرَافَنَا فِيٓ أَمۡرِنَا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ (آل عمران:١٤٧).

- ويقـــول تعـــالى: ﴿ رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَتَوَفَّنَا مُسۡلِمِينَ ﴾ (الأعراف:١٢٦).

كل هـــذه الأدعـــية تزود المؤمن بطاقات فاعلة تجعلـــه يمضـــي في الطريق الموصـــلة للجنة بتدرج وأخـــذ بالأسباب العملية والإيمانية، يقول تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ (البقرة:١٥٣)، ويقول: ﴿ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ۝ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ ﴾ (العصر:٢-٣). وكما جاء في الحديث الصحيح: «...الصَّبْرُ ضِيَاءٌ»(١) فلا بقـــاء للحق بغـــير صـــبر، ولا طريق موصلة إلا إذا تنوّرت بالصبر.

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب الطهارة.

المحور الرابع: دلالات الخشية:

إن خشية الله تعالى من أبرز صفات المؤمنين، وأعظم آثار الإيمان، يقول تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴾ (الأنبياء:٤٩)، وهي أعلى مرتبة من الخوف. يقول ابن القيم: «الخشية أخص من الخوف، فهي خوف مقرون بمعرفة»[1]. فالخوف على مراتب:

- أدنى مراتبه الخوف الذي هو من شروط الإيمان ومقتضاه، كما يشير إليه قوله تعالى: ﴿ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ (آل عمران:١٧٥)؛

- ثم مرتبة الخشية ذات الطابع العلمي والمعرفي كما في قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ ﴾ (فاطر:٢٨).

- ومرتبة الوجل: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ (الأنفال:٢)، وهي أساس مراقبة الله، تعمر قلب المؤمن، وتحول بين صاحبه وبين محارم الله ومعاصيه، وترقى به إلى درجة الإحسان التي تجعله يعبد الله كأنه يراه فإن لم يكن يراه فإنه يراه، فيتميز عن الغافلين والعابثين، يقول ﷺ: «مَنْ خَافَ أَدْلَجَ، وَمَنْ أَدْلَجَ بَلَغَ الْمَنْزِلَ، أَلا إِنَّ سِلْعَةَ اللَّهِ غَالِيَةٌ، أَلا إِنَّ سِلْعَةَ اللَّهِ الْجَنَّةُ»[2].

---

(١) تهذيب مدارج السالكين، ص ٢٦٩.

(٢) أخرجه الترمذي، وقال: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ.

والخوف من الله لا يعني الشعور بالرعب الذي يزرع القلق والخلل والاضطراب في نفس الخائف، وإنما هو إحساسٌ دائمٌ بالرقيب الأعلى وتمثُّلٌ فاعل لوجود الله، وامتثالٌ مطلقٌ لفعل أوامره، وترك لنواهيه.

وانطلاقًا من هذا المفهوم للخوف من الله وخشيته، يكون المؤمن مستشعرًا الطمأنينةَ، والسلامَ النفسيَّ، ويكون من الذين قال عنهم سبحانه وتعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ (الرعد:٢٨). وعن أبي هريرة، رضي الله عنه، عن النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه جل وعلا أنه قال: «**وعزتي لا أجمع على عبدي خوفين وأمنين: إذا خافني في الدنيا أمنته يوم القيامة، وإذا أمنني في الدنيا أخفته يوم القيامة**»[1]. وكلما تقرب العبد من ربه كان أشد خوفاً وخشية له، ولذلك قال حبيب الله المصطفى ﷺ: «... **فَوَاللَّهِ إِنِّي أَعْلَمُهُمْ بِاللَّهِ وَأَشَدُّهُمْ لَهُ خَشْيَةً**»[2].

ومع شدة إقبال العبد على الطاعات، والتقرب إلى الله بأنواع القربات؛ يشفق على نفسه أشد الإشفاق، ويخشى أن يُحرم من القبول، فعن عائشة، رضي الله عنها، قالت: «سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّه ﷺ عَنْ هَذِه الآيَة: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ قَالَتْ عَائِشَةُ: أَهُمِ الَّذينَ يَشْرَبُونَ

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه.

(٢) أخرجه البخاري، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة.

الْخَمْرَ وَيَسْرِقُونَ؟ قَالَ:لا يَا بِنْتَ الصِّدِّيقِ، وَلَكِنَّهُمِ الَّذِينَ يَصُومُونَ وَيُصَلُّونَ وَيَتَصَدَّقُونَ وَهُمْ يَخَافُونَ أَنْ لا يُقْبَلَ مِنهُمْ، أُولَئِكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ» (1). كما يشفق على العمل أن يصير إلى ضياع، يقول تعالى: ﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَـٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴾ (الفرقان:٢٣) فيلجأ إلى الله خوفاً وطمعاً، كي يعينه على تحسين عمله. ومن خوفه منه سبحانه يبكي على تقصيره، ويزداد إيماناً وخشوعاً وطاعة. وقد بين ﷺ أن من بكى من خشية الله فإن الله يظله تحت ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله، فقال: «... وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللَّهَ خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ...»(2)، ويقول تعالى: ﴿ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ۝١٠٧ وَيَقُولُونَ سُبْحَـٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ۝١٠٨ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩ ﴾ (الإسراء:١٠٧-١٠٩). وهذا البكاء يزيد المؤمن قرباً من الله، كما يزيده عزة بالنفس وصلابة في المواجهة وسمواً.

ومن هذه الأدعية الواردة في الخوف من الله والخشية منه تعالى:

---

(١) أخرجه الترمذي، كتاب تفسير القرآن.

(٢) أخرج البخاري، كتاب الأذان، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، رضي الله عنه، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللَّهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لا ظِلَّ إِلا ظِلُّهُ، الإِمَامُ الْعَادِلُ، وَشَابٌّ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ رَبِّهِ، وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ فِي الْمَسَاجِدِ، وَرَجُلانِ تَحَابَّا فِي اللَّهِ اجْتَمَعَا عَلَيْهِ وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ، وَرَجُلٌ طَلَبَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ فَقَالَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ، وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ أَخْفَى حَتَّى لا تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ، وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللَّهَ خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ.

- يقول تعالى: ﴿ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ (البقرة:٢٠١).

- ويقول: ﴿ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ (آل عمران:١٦)

- ويقول تعالى: ﴿ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ ۖ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴾ (الفرقان:٦٥)

- ويقول عز شأنه: ﴿ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ (يونس:٨٥-٨٦) .

- ويقول تعالى: ﴿ رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴾ (المؤمنون:٩٧-٩٨).

- ويقول تعالى على لسان لوط، عليه السلام: ﴿ رَبِّ نَجِّنِى وَأَهْلِى مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴾ (الشعراء:١٦٩).

- ويقول تعالى: ﴿ رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ (العنكبوت:٣٠).

فكل هذه الأدعية تدور حول دلالات الخوف من الله والخشية من عذابه، وتطلب شمولية الجزاء الحسن في الدنيا والآخرة.

المحور الخامس: دلالات الشكر:

من أبرز الصفات التي يجب على المؤمن أن يتصف بها أن يكون عبداً شكوراً، حامداً الله على نعمه التي لا تعد ولا تحصى. وللشكر دلالات متعددة أهمها الحمد والثناء والرضى. وفي حديث لأبي هريرة، رضي الله عنه، يقول رسول الله ﷺ: **«كُلُّ أَمْرٍ ذِي بَالٍ لا يُبْدَأُ فِيهِ بِالْحَمْدِ أَقْطَعُ»**[1] ولذلك كان ﷺ لا ينفك يشكر ربه آناء الليل والنهار، ففيما يروي ابن عمر، رضى الله عنهما، عن أمّنا عائشة، رضي الله عنها، وهي تصف أمر الرسول ﷺ وتبكي: «كل أمره كان عَجَباً، أتاني في ليلتي حتى مس جلده جلدي ثم قال: **«ذريني أتعبَّد لربي»**، قالت: فقلت: والله إني لأحِب قربَك، وإني أحب أن تَعبّدَ لربك، فقام إلى القربة فتوضأ ولم يكثر صب الماء، ثم قام يصلي فبكى حتى بل لحيته، ثم سجد فبكى حتى بلَّ الأرض، ثم اضطجع على جنبه فبكى، حتى إذا أتى بلال يؤذنه بصلاة الصبح، قالت: فقال: يا رسول الله ما يبكيك وقد غفر الله ذنبك ما تقدم وما تأخر؟ فقال: **«ويحك يا بلال! وما يمنعني أن أبكي وقد أنزل عليّ في هذه الليلة: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَأَيَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ (آل عمران: ١٩٠)»، ثم قال: «ويل لمن**

---

(١) أخرجه ابن ماجه، كتاب النكاح.

قرأها ولـــم يتفـــكر فيها» وفي رواية أخرى: «**يا بلال! أفلا أكـــون عبداً شكوراً؟**»[1].

ورغم أن الأدعية الواردة في القرآن الكريم في مجال الشكر ليســـت كثيرة، فإن كل الأدعية التي وردت عن النبي ﷺ لا تخلو مـــن حمـــد الله والثناء عليه وشكره على نعمه، المادية والمعنوية.

ومن هذه الأدعية التي جاءت في القرآن الكريم في دلالات الشكر والحمد:

- يقول تعالى على لســـان امرأة عمـــران بعد أن رزقهـــا الحمل: ﴿ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّيٓ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ (آل عمران:٣٥).

- ويقول تعالى على لسان يوسف، عليه السلام، يشكره ســـبحانه على نعمـــه: ﴿ ۞ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِۖ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ (يوسف:١٠١).

- ويقول تعالى على لسان سليمان، عليه الســـلام: ﴿ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ (النمل:١٩).

---

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير، ١٦٤/٢؛ الجامع لأحكام القـــرآن للقرطبـــي، ١٩٧/٤.

- ويقول تعالى على لسان موسى، عليه السلام: ﴿ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾ (القصص:٢٤).

- ويقول تعالى على لسان سليمان، عليه السلام: ﴿ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِيٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴾ (ص:٣٥).

- ويقول أيضاً: ﴿ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِيٓ ۖ إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ (الأحقاف:١٥)

إن المتأمل في المحاور الخمسة يجد أن الأدعية تحمل في طياتها بعض الدلالات التي ذكرناها، وتتداخل فيها معانيها من مثل قوله تعالى: ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴾ (آل عمران:٨)، فرغم انتمائها إلى محور دلالات طلب الصبر والتثبيت إلا أننا نلمس، سواء من خلال السياق أو المعجم، دلالات الهداية والرحمة والعطاء، وهكذا في باقي الأدعية.

لكن المعنى العام الذي يجمع بين هذه الأدعية، وينسج لحمتها هو الافتقار المطلق لله تعالى، يقول عز شأنه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾ (فاطر:١٥)، وقد عرَّف

ابن القيم الفقر بقوله[1]: «الفقر الحقيقي: دوام الافتقار إلى الله في كل حال، وأن يشهد العبد في كل ذرة من ذراته الظاهرة والباطنة فاقة تامة إلى الله - تعالى - من كل وجه».

وهذا هو المطلوب في الدعاء، استحضار معناه العام الدال على الافتقار إلى الله تعالى، وتَجرُّد قلب العبد من كل أهواء الدنيا ومغرياتها، وإقباله بالكلية على المولى عز وجل، متذللاً بين يديه، مستسلماً لأوامره ونواهيه، متعلقاً بمحبته وخشيته وطاعته، يقول تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾ (الأنعام:١٦٢-١٦٣).

والدعاء ليس مختصاً بالمسلمين فقط، وإنما كل الناس يلجأون إلى من يؤمنون به، يدعونه ويتضرعون إليه، لكن الله تعالى يقول عن الذين ينحرفون عن دعائه: ﴿ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴾ (غافر:٥٠).

(١) مدارج السالكين، ٢/٤٤٠.

القسم الثاني: تصنيف نصوص الدعاء النبوي

إن أعباء الدعوة والدولة والمجتمع والأسرة أو أي شيء آخر مهما كان لم يكن يشغل رسول الله ﷺ عن الوقوف بين يدي الله عز وجل، ومناجاته، والتذلل له سبحانه في كل لحظة من لحظات حياته، فقد كان في اتصال دائم بالله، يؤكد عبوديته له سبحانه في كل عمل من أعماله وفي كل خطوة يخطوها، حياته سلسلة متواصلة من الذكر والدعاء والعمل. وكان الدعاء يصاحبه ﷺ في كل عمل، دعاء في دعاء، قطرات من نهر رقراق يجري في كل منحى من مناحي حياته، وما زال يجري رقراقاً صافياً يدعونا للتعطر بمائه، يقول تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ (الأحزاب:٢١). وإذا كانت الإحاطة بكل نصوص دعائه ﷺ غير متاحة لي في هذا البحث المتواضع، فحسبي ألا أُحرم من فضل إيراد نماذج منه، تكون بذرة بإذن الله لبحوث تنصب على جمع الدعاء الصحيح وتصنيفه ودراسته، بالإضافة إلى المصنفات السابقة في هذا المجال.

وبالنظر إلى المعاني العامة لأدعيته ﷺ يمكن تصنيفها إلى خمسة محاور: دعاء الحمد، ودعاء الرحمة وللاستغفار، ودعاء الاستعاذة، ودعاء التسليم، ودعاء المسألة، مع تداخل وتزاوج في هذه المعاني.

المحور الأول: دعاء الحمد:

الحمد هو الثناء، ومن معانيه المدح وهو أعم من الحمد، والشكر وهو أخص من الحمد. وأول كلمة نتلوها في القرآن الكريم بعد البسملة ﴿ٱلْحَمْدُ﴾ بألف ولام الاستغراق للجنس، للتعبير عن اختصاص الله بالثناء والحمد وإثباته، فهو المحمود على كل ما هو في عالم الوجود والغيب، ولهذا يسبح بحمده كل ذرة في الكون، يقول تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ (الإسراء: ٤٤).

وكان ﷺ يحث المؤمن على حمد الله والثناء عليه في كل عمل يقوم به، يقول مثلاً: «**إِذَا صَلَّى أَحَدُكُمْ فَلْيَبْدَأْ بِتَحْمِيدِ اللَّهِ وَالثَّنَاءِ عَلَيْهِ، ثُمَّ لْيُصَلِّ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ ثُمَّ لْيَدْعُ بَعْدُ بِمَا شَاءَ**»[1]، ويقول ﷺ: «**مَنْ قَالَ: لا إِلَهَ إلا اللَّهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ؛ فِي يَوْمٍ مِائَةَ مَرَّةٍ كَانَتْ لَهُ عَدْلَ عَشْرِ رِقَابٍ، وَكُتِبَ لَهُ مِائَةُ حَسَنَةٍ، وَمُحِيَتْ عَنْهُ مِائَةُ سَيِّئَةٍ، وَكَانَتْ لَهُ حِرْزًا مِنَ الشَّيْطَانِ يَوْمَهُ ذَلِكَ حَتَّى يُمْسِيَ، وَلَمْ يَأْتِ أَحَدٌ بِأَفْضَلَ مِمَّا جَاءَ إِلا رَجُلٌ عَمِلَ أَكْثَرَ مِنْهُ**»[2].

ومن ذلك أيضاً ما روى الترمذي في جامعه من حديث عبد الله ابن مسعود، رضي الله عنه، قال رسول الله ﷺ: «**لَقِيتُ إِبْرَاهِيمَ لَيْلَةَ**

(١) أخرجه الترمذي، وقال: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.
(٢) أخرجه البخاري، كتاب الدعوات .

أُسْرِيَ بِي فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، أَقْرِئْ أُمَّتَكَ مِنِّي السَّلامَ، وَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ الْجَنَّةَ طَيِّبَةُ التُّرْبَةِ، عَذْبَةُ الْمَاءِ، وَأَنَّهَا قِيعَانٌ، وَأَنَّ غِرَاسَهَا: سُبْحَانَ اللَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَلا إِلَهَ إِلا اللَّهُ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ» (١).

من هنا كان الحمد من أغزر الدلالات في دعائه ﷺ، حيث يكاد لا يخلو دعاء من دعائه من حمد الله وشكره والثناء عليه، ثم يدعو بعد ذلك بما يريد. وفي هذا المحور نماذج من الأدعية التي يغلب عليها معاني الحمد، من ذلك:

قوله ﷺ في قيام الليل: «اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ، أَنْتَ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ، وَلَكَ الْحَمْدُ أَنْتَ قَيَّامُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ، وَلَكَ الْحَمْدُ أَنْتَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ، أَنْتَ الْحَقُّ، وَوَعْدُكَ الْحَقُّ، وَقَوْلُكَ الْحَقُّ، وَلِقَاؤُكَ حَقٌّ، وَالْجَنَّةُ حَقٌّ، وَالنَّارُ حَقٌّ، وَالسَّاعَةُ حَقٌّ، اللَّهُمَّ لَكَ أَسْلَمْتُ وَبِكَ آمَنْتُ، وَعَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ، وَإِلَيْكَ أَنَبْتُ، وَبِكَ خَاصَمْتُ، وَإِلَيْكَ حَاكَمْتُ، فَاغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ وَأَخَّرْتُ وَأَسْرَرْتُ وَأَعْلَنْتُ، أَنْتَ إِلَهِي لا إِلَهَ إِلا أَنْتَ» (٢). فهنا مثلاً رغم المزاوجة بين معاني عدة، إلا أن الطابع العام الذي يغلب عليه هو حمد الله وشكره والاستسلام له.

ويدعو ﷺ عند قيامه من الركوع بقوله: «اللَّهُمَّ رَبَّنَا لَكَ الْحَمْدُ مِلْءُ السَّمَاوَاتِ وَمِلْءُ الأَرْضِ وَمِلْءُ مَا شِئْتَ مِنْ شَيْءٍ بَعْدُ» (٣).

---

(١) أخرجه الترمذي، وقال: هذا حديثٌ حسنٌ غريبٌ.
(٢) أخرجه مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها.
(٣) أخرجه مسلم، كتاب الصلاة.

وعنه ﷺ قال: « مَنْ قَالَ حِينَ يُصْبِحُ: اللَّهُمَّ مَا أَصْبَحَ بِي مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنْكَ وَحْدَكَ لا شَرِيكَ لَكَ، فَلَكَ الْحَمْدُ وَلَكَ الشُّكْرُ، فَقَدْ أَدَّى شُكْرَ يَوْمِهِ، وَمَنْ قَالَ مِثْلَ ذَلِكَ حِينَ يُمْسِي فَقَدْ أَدَّى شُكْرَ لَيْلَتِهِ»(١).

ويقول ﷺ في نموذج آخر: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي كَفَانِي وَآوَانِي وَأَطْعَمَنِي وَسَقَانِي، وَالَّذِي مَنَّ عَلَيَّ فَأَفْضَلَ، وَالَّذِي أَعْطَانِي فَأَجْزَلَ، الْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى كُلِّ حَالٍ، اللَّهُمَّ رَبَّ كُلِّ شَيْءٍ وَمَلِيكَهُ وَإِلَهَ كُلِّ شَيْءٍ أَعُوذُ بِكَ مِنَ النَّارِ»(٢).

ومن دعائه ﷺ في عرفة: «اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ كَالَّذِي نَقُولُ وَخَيْرًا مِمَّا نَقُولُ، اللَّهُمَّ لَكَ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي، وَإِلَيْكَ مَآبِي، وَلَكَ رَبِّ تُرَاثِي، اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ وَوَسْوَسَةِ الصَّدْرِ وَشَتَاتِ الأَمْرِ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا تَجِيءُ بِهِ الرِّيحُ»(٣).

كما كان ﷺ يقول عند الكرب : «لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ الْعَظِيمُ الْحَلِيمُ، لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ، لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَرَبُّ الأَرْضِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ» (٤). وصحّ عنه ﷺ أنه قال: «مَنْ رَأَى

(١) أخرجه أبو داود.

(٢) أخرجه أبوداود.

(٣) أخرجه الترمذي، كتاب الدعوات، وقال: هَذَا حَدِيثٌ غَرِيبٌ.

(٤) أخرجه البخاري، كتاب الدعوات.

مُبْتَلًى فَقَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي عَافَانِي مِمَّا ابْتَلاكَ بِهِ وَفَضَّلَنِي عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقَ تَفْضِيلاً، لَمْ يُصِبْهُ ذَلِكَ الْبَلاءُ »[1].

وقال ﷺ: «... وَمَنْ لَبِسَ ثَوْبًا فَقَالَ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي كَسَانِي هَذَا الثَّوْبَ وَرَزَقَنِيهِ مِنْ غَيْرِ حَوْلٍ مِنِّي وَلا قُوَّةٍ، غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ»[2].

وكان ﷺ إذا آوى إلى فراشه يقول: «اللَّهُمَّ رَبَّ السَّمَاوَاتِ وَرَبَّ الأَرْضِ وَرَبَّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ، رَبَّنَا وَرَبَّ كُلِّ شَيْءٍ، فَالِقَ الْحَبِّ وَالنَّوَى، وَمُنْزِلَ التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ وَالْفُرْقَانِ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ كُلِّ شَيْءٍ أَنْتَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهِ، اللَّهُمَّ أَنْتَ الأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الآخِرُ فَلَيْسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الظَّاهِرُ فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْبَاطِنُ فَلَيْسَ دُونَكَ شَيْءٌ، اقْضِ عَنَّا الدَّيْنَ وَأَغْنِنَا مِنَ الْفَقْرِ»[3]. وإذا استيقظ قال: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَحْيَانَا بَعْدَمَا أَمَاتَنَا وَإِلَيْهِ النُّشُورُ»[4].

ومعاني الحمد التي يكاد يفتتح بها ﷺ كل عمل يقوم به، وخاصة الدعاء، إذا داوم عليها المؤمن وجعلها مفتاحاً لكل عمل، فإن ذلك يسلمه إلى السلام والطمأنينة والرضا، وينعكس كل هذا على سلوكه وعلاقاته وكل أعماله، فيأتي عطاؤه مباركاً وقيِّماً في حجم بركة الدعاء وقيمته.

---

(١) أخرجه الترمذي، وقال: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ.

(٢) أخرجه أبوداوود، كتاب اللباس.

(٣) أخرجه مسلم، كتاب الذكر والدعاء.

(٤) أخرجه أبوداوود، كتاب الأدب.

المحور الثاني: دعاء الرحمة والاستغفار:

يقول تعالى: ﴿... ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارٗا ۝١٠ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا ۝١١ وَيُمۡدِدۡكُم بِأَمۡوَٰلٖ وَبَنِينَ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ جَنَّٰتٖ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ أَنۡهَٰرٗا﴾ (نوح: ١٠-١٢).

وعن أبي هريرة، رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «**وَاللَّهِ إِنِّي لأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ فِي الْيَوْمِ أَكْثَرَ مِنْ سَبْعِينَ مَرَّةً**» (١). وهذا الحديث يغني عن أي قول في قيمة استمطاره ﷺ الرحمة منه تعالى وفي استغفاره له عز وجل، وهو المغفور له ابتداء، وفي نسج كل دعاء بمعاني طلب الرحمة والمغفرة.. وفيما يأتي نماذج من الأدعية التي تغلب عليها هذه المعاني:

يقول رسول الله ﷺ: «**سَيِّدُ الاسْتِغْفَارِ: اللَّهُمَّ أَنْتَ رَبِّي، لا إِلَهَ إلا أَنْتَ، خَلَقْتَنِي وَأَنَا عَبْدُكَ، وَأَنَا عَلَى عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ مَا اسْتَطَعْتُ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا صَنَعْتُ، أَبُوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ وَأَبُوءُ لَكَ بِذَنْبِي فَاغْفِرْ لِي، فَإِنَّهُ لا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلا أَنْتَ**» (٢). يقول الشيخ القرضاوي معلقاً على هذا الحديث في كتابه «المنتقى»: «إنما كان سيد الاستغفار، لأنه يتضمن جملة من المعاني الربانية العميقة: تضمن توحيد الربوبية «**اللَّهُمَّ أَنْتَ رَبِّي**» وتوحيد الإلهية «**لا إِلَهَ إِلا أَنْتَ**»، والإقرار بالخالقية

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الدعوات .

(٢) أخرجه البخاري، كتاب الدعوات.

والعبودية «خَلَقْتَنِي وَأَنَا عَبْدُكَ»، والمبايعة لله على الوفاء «وَأَنَا عَلَى عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ مَا اسْتَطَعْتُ»، والبراءة من المعصية والاستعاذة بالله منها «أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا صَنَعْتُ»، والإقرار لله بالنعمة، وعلى النفس بالذنب «أَبُوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ وَأَبُوءُ لَكَ بِذَنْبِي»، وطلب المغفرة ممن لا غفار غيره «فَاغْفِرْ لِي، فَإِنَّهُ لا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلا أَنْتَ»، وما أحوج المسلم أن يودع بها مساءه، ويستقبل بها صباحه».

ويقول ﷺ في دعاء جامع: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي خَطِيئَتِي وَجَهْلِي وَإِسْرَافِي فِي أَمْرِي وَمَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي جِدِّي وَهَزْلِي وَخَطَئِي وَعَمْدِي وَكُلُّ ذَلِكَ عِنْدِي، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ وَمَا أَخَّرْتُ وَمَا أَسْرَرْتُ وَمَا أَعْلَنْتُ وَمَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي، أَنْتَ الْمُقَدِّمُ وَأَنْتَ الْمُؤَخِّرُ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ»[1].

وكان نبي الله ﷺ إذا كَرَبَهُ أمرٌ قال: «يَا حَيُّ يَا قَيُّومُ بِرَحْمَتِكَ أَسْتَغِيثُ»[2].

وعن ابْنِ عَبَّاسٍ، رضي الله عنهما، قَالَ سَمِعْتُ نَبِيَّ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ لَيْلَةً حِينَ فَرَغَ مِنْ صَلاتِه: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِكَ تَهْدِي بِهَا قَلْبِي، وَتَجْمَعُ بِهَا أَمْرِي، وَتَلُمُّ بِهَا شَعَثِي، وَتُصْلِحُ بِهَا غَائِبِي،

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب الذكر والدعاء.

(٢) أخرجه الترمذي، كتاب الدعوات.

وَتَرْفَعُ بِهَا شَاهِدِي، وَتُزَكِّي بِهَا عَمَلِي، وَتُلْهِمُنِي بِهَا رُشْدِي، وَتَرُدُّ بِهَا أُلْفَتِي، وَتَعْصِمُنِي بِهَا مِنْ كُلِّ سُوءٍ...» (١).

وكَانَ نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ إِذَا أَمْسَى قَالَ: «أَمْسَيْنَا وَأَمْسَى الْمُلْكُ لِلَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ، قَالَ أُرَاهُ قَالَ فِيهِنَّ: لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، رَبِّ أَسْأَلُكَ خَيْرَ مَا فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ وَخَيْرَ مَا بَعْدَهَا، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ وَشَرِّ مَا بَعْدَهَا، رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْكَسَلِ وَسُوءِ الْكِبَرِ، رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابٍ فِي النَّارِ وَعَذَابٍ فِي الْقَبْرِ.. وَإِذَا أَصْبَحَ قَالَ ذَلِكَ أَيْضًا: أَصْبَحْنَا وَأَصْبَحَ الْمُلْكُ لِلَّهِ» (٢).

وكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا دَخَلَ الْمَسْجِدَ يَقُولُ: «بِسْمِ اللَّهِ، وَالسَّلامُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي ذُنُوبِي وَافْتَحْ لِي أَبْوَابَ رَحْمَتِكَ» وَإِذَا خَرَجَ قَالَ: «بِسْمِ اللَّهِ، وَالسَّلامُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي ذُنُوبِي وَافْتَحْ لِي أَبْوَابَ فَضْلِكَ» (٣).

ويَقُولُ فِيمَا بَيْنَ السَّجْدَتَيْنِ: «رَبِّ اغْفِرْ لِي، وَارْحَمْنِي، وَاجْبُرْنِي، وَارْفَعْنِي، وَارْزُقْنِي، وَاهْدِنِي» (٤) .

---

(١) أخرجه الترمذي، كتاب الدعوات.

(٢) أخرجه مسلم، كتاب الذكر والدعاء.

(٣) أخرجه ابن ماجه، كتاب المساجد والجماعات.

(٤) أخرجه الإمام أحمد.

ويوصي من يكثر لغطه بقوله ﷺ: «مَنْ جَلَسَ فِي مَجْلِسٍ فَكَثُرَ فِيهِ لَغَطُهُ فَقَالَ قَبْلَ أَنْ يَقُومَ مِنْ مَجْلِسِهِ ذَلِكَ: سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ، أَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلا أَنْتَ، أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ، إِلا غُفِرَ لَهُ مَا كَانَ فِي مَجْلِسِهِ ذَلِكَ»[1].

ونظرة على دلالات هذه الأدعية وغيرها التي تدخل في مجال طلب الرحمة والمغفرة من الله عز وجل يجد أنها تحمل في أعماقها بذرات محفزة على متابعة المؤمن للطريق الموصلة إلى الله تعالى، ودافعة له على مداومة التوبة والوقوف مع نفسه مرات ومرات من أجل محاسبتها والاستغفار لها.

المحور الثالث: دعاء الاستعاذة:

كان ﷺ يستعين في كل أعماله بالله عز وجل، ويستعيذ به من فساد هذه الأعمال أو بطلانها، كما كان يدعوه ليجنبه كل شر مادي أو معنوي، وهذه نماذج من الأدعية التي كان يستعيذ بالله من خلالها:

وعن أَبِي هُرَيْرَةَ، رضي الله عنه، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَدْعُو: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الشِّقَاقِ، وَالنِّفَاقِ، وَسُوءِ الأَخْلاقِ»[2].

وعَنْ عَائِشَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَقُولُ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْكَسَلِ وَالْهَرَمِ وَالْمَأْثَمِ وَالْمَغْرَمِ، وَمِنْ فِتْنَةِ الْقَبْرِ وَعَذَابِ

---

(١) أخرجه الترمذي، وقال: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ غَرِيبٌ.

(٢) أخرجه النسائي، كتاب الاستعاذة.

الْقَبْرِ، وَمِنْ فِتْنَةِ النَّارِ وَعَذَابِ النَّارِ، وَمِنْ شَرِّ فِتْنَةِ الْغِنَى، وَأَعُوذُ بِـــكَ مِنْ فِتْنَةِ الْفَقْرِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ الْمَسِيحِ الدَّجَّالِ، اللَّهُمَّ اغْسِلْ عَنِّي خَطَايَايَ بِمَاءِ الثَّلْجِ وَالْبَرَدِ، وَنَقِّ قَلْبِي مِنَ الْخَطَايَا كَمَا نَقَّيْتَ الثَّــوْبَ الأَبْيَضَ مِنَ الدَّنَسِ، وَبَاعِدْ بَيْنِي وَبَيْنَ خَطَايَايَ كَمَـــا بَاعَـــدْتَ بَـــيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ» [1].

وكان إذا خرج من بيته يقول: «اللَّهُمَّ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَضِلَّ أَوْ أُضَلَّ، أَوْ أَزِلَّ أَوْ أُزَلَّ، أَوْ أَظْلِمَ أَوْ أُظْلَمَ، أَوْ أَجْهَلَ أَوْ يُجْهَلَ عَلَيَّ» [2] .

ومن أدعيته ﷺ عند النوم[3]:«رَبِّ قِنِـــي عَـــذَابَكَ يَـــوْمَ تَبْعَـــثُ عِبَادَكَ»[4].

وكان يقول عند دخوله الخلاء: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْخُبُـــثِ وَالْخَبَائِثِ»[5]، وإذا خرج يقول: «غُفْرَانَكَ»[6].

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الدعوات.

(٢) أخرجه أبوداوود.

(٣) كان يقرأ عند دخـــوله الفراش سبحان الله ٣٣ مرة ، الحمـــد لله ٣٣ مرة ، الله أكبر ٣٣ مرة، وفي رواية ٣٤ مرة. ثم يقرأ أدعية كثيرة منها هذا الدعاء، ثم يضع يده اليمنى تحت رأسه ويثني ركبتيه قليلاً وينام على جنبه الأيمن، ناوياً قيام الليل.

(٤) أخرجه الترمذي، وقال: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ.

(٥) أخرجه البخاري، كتاب الدعوات.

(٦) أخرجه الترمذي، وقال: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ.

وكان ﷺ يقول حين يدخل السوق: «باسم الله، اللهم إني أسألك من خير هذه السوق وخير ما فيها، وأعوذ بك من شرها وشر ما فيها، اللهم إني أعوذ بك أن أصيب فيها يميناً فاجرة أو صفقة خاسرة»[1].

ومثل هذه الأدعية تضفي على الداعي طمأنينة، وتجعله يمارس كل أعماله دون خشية من تعثر أو كبوات، لأنه يكون قد سلم ما يقوم به لله فيحفظه ويرعاه.

المحور الرابع: دعاء التسليم:

كان رسول الله ﷺ يُسلم أمره كله لله، ويتوكل عليه في كل شيء، ويطلب منه تعالى أن يقبله عنده، وصدق الله العظيم حين قال: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ (الأنعام:١٦٢-١٦٣). وهذه نماذج من الأدعية التي يسلم فيها رسول الله ﷺ نفسه وكيانه لله ويدعو المسلم لذلك:

يقول ﷺ في ركوعه: «اللَّهُمَّ لَكَ رَكَعْتُ، وَبِكَ آمَنْتُ، وَلَكَ أَسْلَمْتُ، خَشَعَ لَكَ سَمْعِي وَبَصَرِي وَمُخِّي وَعَظْمِي وَعَصَبِي»[2].

---

(١) أخرجه الطبراني والحاكم.

(٢) أخرجه مسلم، كتاب صلاة المسافرين.

ويقول في سجوده: «اللَّهُمَّ لَكَ سَجَدْتُ، وَبِكَ آمَنْتُ، وَلَكَ أَسْلَمْتُ، سَجَدَ وَجْهِي لِلَّذِي خَلَقَهُ وَصَوَّرَهُ وَشَقَّ سَمْعَهُ وَبَصَرَهُ، تَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ»(١)؛ «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي كُلَّهُ، دِقَّهُ وَجِلَّهُ، وَأَوَّلَهُ وَآخِرَهُ، وَعَلانِيَتَهُ وَسِرَّهُ»(٢).

وعنه ﷺ قال طالباً من المؤمن رفع شهاداته لله، وإشهاد الوجود على ذلك، مسلماً بألوهيته سبحانه وربوبيته: «مَنْ قَالَ حِينَ يُصْبِحُ أَوْ يُمْسِي: اللَّهُمَّ إِنِّي أَصْبَحْتُ أُشْهِدُكَ وَأُشْهِدُ حَمَلَةَ عَرْشِكَ وَمَلائِكَتَكَ وَجَمِيعَ خَلْقِكَ أَنَّكَ أَنْتَ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلا أَنْتَ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُكَ وَرَسُولُكَ، أَعْتَقَ اللَّهُ رُبُعَهُ مِنَ النَّارِ، فَمَنْ قَالَهَا مَرَّتَيْنِ أَعْتَقَ اللَّهُ نِصْفَهُ، وَمَنْ قَالَهَا ثَلاثًا أَعْتَقَ اللَّهُ ثَلاثَةَ أَرْبَاعِهِ، فَإِنْ قَالَهَا أَرْبَعًا أَعْتَقَهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ»(٣).

وكان يقول عند نومه: «اللَّهُمَّ أَسْلَمْتُ نَفْسِي إِلَيْكَ، وَوَجَّهْتُ وَجْهِي إِلَيْكَ، وَفَوَّضْتُ أَمْرِي إِلَيْكَ، وَأَلْجَأْتُ ظَهْرِي إِلَيْكَ، رَغْبَةً وَرَهْبَةً إِلَيْكَ، لا مَلْجَأَ وَلا مَنْجَا مِنْكَ إِلا إِلَيْكَ، آمَنْتُ بِكِتَابِكَ الَّذِي أَنْزَلْتَ، وَبِنَبِيِّكَ الَّذِي أَرْسَلْتَ»(٤).

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب صلاة المسافرين.
(٢) أخرجه مسلم، كتاب الصلاة.
(٣) أخرجه أبو داود، كتاب الأدب.
(٤) أخرجه البخاري، كتاب الدعوات .

المحور الخامس: دعاء المسألة:

لم يكن ﷺ يستنكف من الإلحاح في سؤال الله عز وجل، وطلب العون والمدد منه في جميع الأحوال وفي كل الأشياء، ومن نماذج ذلك هذه الأدعية:

- يقول ﷺ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْهُدَى وَالتُّقَى وَالْعَفَافَ وَالْغِنَى»[1].

- ويقول ﷺ: «مَنْ قَالَ حِينَ يَسْمَعُ النِّدَاءَ: اللَّهُمَّ رَبَّ هَذِهِ الدَّعْوَةِ التَّامَّةِ وَالصَّلاةِ الْقَائِمَةِ آتِ مُحَمَّدًا الْوَسِيلَةَ وَالْفَضِيلَةَ وَابْعَثْهُ مَقَامًا مَحْمُودًا الَّذِي وَعَدْتَهُ، حَلَّتْ لَهُ شَفَاعَتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ»[2].

- وعنه ﷺ: «اللَّهُمَّ بِعِلْمِكَ الْغَيْبَ، وَقُدْرَتِكَ عَلَى الْخَلْقِ، أَحْيِنِي مَا عَلِمْتَ الْحَيَاةَ خَيْرًا لِي، وَتَوَفَّنِي إِذَا عَلِمْتَ الْوَفَاةَ خَيْرًا لِي، اللَّهُمَّ وَأَسْأَلُكَ خَشْيَتَكَ فِي الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، وَأَسْأَلُكَ كَلِمَةَ الْحَقِّ فِي الرِّضَا وَالْغَضَبِ، وَأَسْأَلُكَ الْقَصْدَ فِي الْفَقْرِ وَالْغِنَى، وَأَسْأَلُكَ نَعِيمًا لا يَنْفَدُ، وَأَسْأَلُكَ قُرَّةَ عَيْنٍ لا تَنْقَطِعُ، وَأَسْأَلُكَ الرِّضَاءَ بَعْدَ الْقَضَاءِ، وَأَسْأَلُكَ بَرْدَ الْعَيْشِ بَعْدَ الْمَوْتِ، وَأَسْأَلُكَ لَذَّةَ النَّظَرِ إِلَى وَجْهِكَ وَالشَّوْقَ إِلَى

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب الذكر والدعاء.

(٢) أخرجه البخاري، كتاب تفسير القرآن.

لقَائكَ، فِي غَيْرِ ضَرَّاءَ مُضِرَّةٍ وَلا فِتْنَةٍ مُضِلَّةٍ، اللَّهُمَّ زَيِّنَّا بِزِينَةِ الإِيمَـــانِ، وَاجْعَلْنَا هُدَاةً مُهْتَدِينَ»[1].

- وكان يقول: «اللَّهُمَّ أَحْسَنْتَ خَلْقِي فَأَحْسِنْ خُلُقِي»[2].

- ويسأل الله الثبات، فيقول: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الثَّبَاتَ فِي الأَمْرِ وَالْعَزِيمَةَ عَلَى الرُّشْدِ»[3].

وعَنْ عَائِشَـــةَ، رَضِي اللَّه عَنْهَا، أَنْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَـــانَ إِذَا أَتَـــى مَرِيضًا أَوْ أُتِيَ بِهِ قَالَ :«أَذْهِبِ الْبَاسَ رَبَّ النَّاسِ، اشْفِ وَأَنْتَ الشَّافِي، لا شِفَاءَ إِلا شِفَاؤُكَ، شِفَاءً لا يُغَادِرُ سَقَمًا»[4].

وعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، رَضِي اللَّه عَنْهمَا، قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُعَلِّمُنَا الاسْتِخَارَةَ فِي الأُمُورِ كُلِّهَا كَمَا يُعَلِّمُنَا السُّورَةَ مِنَ الْقُرْآنِ، يَقُولُ: «إِذَا هَمَّ أَحَدُكُمْ بِالأَمْرِ فَلْيَرْكَعْ رَكْعَتَيْنِ مِنْ غَيْرِ الْفَرِيضَةِ ثُـــمَّ لِيَقُـــلِ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْتَخِيرُكَ بِعِلْمِكَ، وَأَسْتَقْدِرُكَ بِقُدْرَتِكَ، وَأَسْأَلُكَ مِنْ فَضْلِكَ الْعَظِيمِ، فَإِنَّكَ تَقْدِرُ وَلا أَقْدِرُ، وَتَعْلَمُ وَلا أَعْلَمُ، وَأَنْتَ عَلامُ الْغُيُـــوبِ، اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ هَذَا الأَمْرَ خَيْرٌ لِي فِي دِينِي وَمَعَاشِي وَعَاقِبَـــةِ أَمْرِي، أَوْ قَالَ عَاجِلِ أَمْرِي وَآجِلِهِ، فَاقْدُرْهُ لِي وَيَسِّرْهُ لِي ثُمَّ بَارِكْ لِي

---

(١) أخرجه النسائي، كتاب السهو .

(٢) أخرجه أحمد .

(٣) أخرجه النسائي، كتاب السهو.

(٤) أخرجه البخاري، كتاب المرضى.

فيه، وَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ هَذَا الأَمْرَ شَرٌّ لِي فِي دِينِي وَمَعَاشِي وَعَاقِبَةِ أَمْرِي، أَوْ قَالَ فِي عَاجِلِ أَمْرِي وَآجِلِهِ، فَاصْرِفْهُ عَنِّي وَاصْرِفْنِي عَنْهُ، وَاقْدُرْ لِيَ الْخَيْرَ حَيْثُ كَانَ، ثُمَّ أَرْضِنِي.. قَالَ: وَيُسَمِّي حَاجَتَهُ» (١).

- وكان يقول في دعاء القنوت: «اللَّهُمَّ اهْدِنِي فِيمَنْ هَدَيْتَ، وَعَافِنِي فِيمَنْ عَافَيْتَ، وَتَوَلَّنِي فِيمَنْ تَوَلَّيْتَ، وَبَارِكْ لِي فِيمَا أَعْطَيْتَ، وَقِنِي شَرَّ مَا قَضَيْتَ، فَإِنَّكَ تَقْضِي وَلا يُقْضَى عَلَيْكَ، وَإِنَّهُ لا يَذِلُّ مَنْ وَالَيْتَ، تَبَارَكْتَ رَبَّنَا وَتَعَالَيْتَ» (٢).

- وكان يَقُولُ خَلْفَ الصَّلاةِ : «لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ، اللَّهُمَّ لا مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ، وَلا مُعْطِيَ لِمَا مَنَعْتَ، وَلا يَنْفَعُ ذَا الْجَدِّ مِنْكَ الْجَدُّ» (٣).

- وكان ﷺ يقول: « اللَّهُمَّ اكْفِنِي بِحَلالِكَ عَنْ حَرَامِكَ، وَأَغْنِنِي بِفَضْلِكَ عَمَّنْ سِوَاكَ» (٤) .

- وإذا خرج لسفر واستوى على بعيره كبر ثلاثاً ودعا: «سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ، اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ فِي سَفَرِنَا هَذَا الْبِرَّ وَالتَّقْوَى وَمِنَ الْعَمَلِ مَا تَرْضَى، اللَّهُمَّ هَوِّنْ

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الجمعة.

(٢) أخرجه الترمذي، وقال: هذا حديثٌ.

(٣) أخرجه البخاري، كتاب القدر .

(٤) أخرجه الترمذي، وقال:هذا حديثٌ حسنٌ غريبٌ.

عَلَيْنَا سَفَرَنَا هَذَا وَاطْوِ عَنَّا بُعْدَهُ، اللَّهُمَّ أَنْتَ الصَّاحِبُ فِي السَّفَرِ وَالْخَلِيفَةُ فِي الأَهْلِ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ وَعْثَاءِ السَّفَرِ وَكَآبَةِ الْمَنْظَرِ وَسُوءِ الْمُنْقَلَبِ فِي الْمَالِ وَالأَهْلِ.. وَإِذَا رَجَعَ قَالَهُنَّ وَزَادَ فِيهِنَّ: آيِبُونَ تَائِبُونَ عَابِدُونَ لِرَبِّنَا حَامِدُونَ»[1].

وهناك حوادث تجري خارج إرادة الإنسان وتكون ذات علاقة غير مباشرة معه، من مثل حدوث القحط أو المجاعة أو الحريق أو انتشار آفة أو غير ذلك من الحوادث، التي لا تكون مرتبطة مباشرة بالفرد، إلا أنها تؤثر فيه سلباً بطريق غير مباشر، وكان للرسول ﷺ أدعية يتوجه فيها إلى ربه في مثل هذه الأمور والآفات، ملحاً في السؤال لتجنيبه أضرار ذلك مثل قوله، عليه السلام: **«مَا مِنْ مُسْلِمٍ تُصِيبُهُ مُصِيبَةٌ فَيَقُولُ مَا أَمَرَهُ اللَّهُ: (إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ)، اللَّهُمَّ أْجُرْنِي فِي مُصِيبَتِي وَأَخْلِفْ لِي خَيْرًا مِنْهَا، إِلا أَخْلَفَ اللَّهُ لَهُ خَيْرًا مِنْهَا»** [2].

وكان ﷺ إذا رأى الهلال قال: **«اللَّهُ أَكْبَرُ، اللَّهُمَّ أَهِلَّهُ عَلَيْنَا بِالأَمْنِ وَالإِيمَانِ، وَالسَّلامَةِ وَالإِسْلامِ، وَالتَّوْفِيقِ لِمَا يُحِبُّ رَبُّنَا وَيَرْضَى، رَبُّنَا وَرَبُّكَ اللَّهُ»**[3] .

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب الحج.

(٢) أخرجه مسلم، كتاب الجنائز.

(٣) أخرجه الدارمي، كتاب الصوم.

وفي دعاء يجمع بين هذه الدلالات كلها قوله ﷺ يوم الأحزاب عن ابن عمر، رضي الله عنهما: «**اللهم إني أعوذ بنور قدسك، وعظمة طهارتك، وبركة جلالك، من كل آفة وعاهة، ومن طوارق الليل والنهار إلا طارقاً يطرق بخير يا رحمن، أنت غياثي فبك أغوث، وأنت ملاذي فبك ألوذ، وأنت عياذي فبك أعوذ، يا من ذلَّت له رقاب الجبابرة، وخضعتْ له أعناق الفراعنة، أعوذ بك من خزيك وكشف سترك ومن نسيان ذكرك والانصراف عن شكرك، أنا في حرزك ليلي ونهاري ونومي وقراري وظعني وأسفاري، ذكرك شعاري، وثناؤك دثاري، لا إله إلا أنت، تعظيماً لوجهك وتكريماً لسبحاتك، أجرني من خزيك ومن شر عبادك، واضرب عليّ سُرادقات حفظك، وأدخلني في حفظ عنايتك، وعُد لي بخير منك يا أرحم الراحمين، يا ذا الجلال والإكرام**» (١).

هذه الأدعية كلها، وغيرها، تعبير عن مدى حاجة الإنسان لله عز وجل ولعونه، ولا شك أن قراءتها في ساعات الليل البهيم أو ساعات النهار، تحمل معاني كثيرة، وتجعل القلب يطمئن بمعية الله تعالى ويأنس بقربه، كما أن المداومة عليها تعطي الداعي القوة، وتمنحه القدرة على الإنجاز والعطاء، وعلى التحمل.

---

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية.

جمالية الدعاء

إن تنمية الذوق الجمالي عند المسلم بعدٌ تربوي إسلامي عظيم، نجد أسسه مبثوثة في مختلف النصوص القرآنية، في مثل قوله الله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ (الكهف:٧)، وقوله: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝٦ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾ (ق:٦-٧)، وغير ذلك من النصوص التي تتحدث عن مظاهر الجمال والزينة، وتلفت نظر الإنسان باستمرار إلى ما في الكون والوجود من آيات الجمال والروعة والفن والإبداع والإتقان، وتقوم شاهدة بجلاء على قدرة الله وعظمته وحسن صنعته، كما تزرع في نفسه بذور الإتقان والجمال وسمو الذوق، التي تنمو وتترعرع في أنماط السلوك والعلاقات، وتنفتح على آفاق الجمال في الكون، وتشد قلبه وعقله ووجدانه إلى الله تعالى مبدع الخلق والجمال في هذا الوجود.

وبذلك تكون التربية الجمالية، من معالم الطريق إلى معرفة الله تعالى، كما أنها تصبح مكوناً جوهريّاً من مكونات الكيان الإنساني، ومفسحة له المجال للترقي الحضاري، يقول مالك بن نبي، رحمه الله، في هذا المجال:

«الإطار الحضاري بكل محتوياته متصل بذوق الجمال، بل إن الجمال هو الإطار الذي تتكون فيه أية حضارة» [1]، وبدون الإحساس الجمالي وتنمية الذوق والجمال تصبح الحياة جافة وقاحلة، ويفقد الإنسان عنصراً مهماً من عناصر الحياة الطيبة، ويتخلى عن قيمة عليا من القيم التي تحكم علاقاته وتوجه سلوكياته، ويخسر الرغبة المتجددة في تحقيق الدقة والإتقان والكمال في أعماله التي تبعده عن الارتجال والفوضى والتعجل والسطحية والإهمال.

ومن أبرز المظاهر الجمالية التي تشهد لله تعالى بالعظمة والجلال، وتفتح الآفاق النفسية والعقلية والوجدانية لدى الانسان، وتحفزه على التربية الجمالية وتنمية الذوق، جمال الخلقة البشرية ذاتها، يقول تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ۝٦ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾ (الانفطار:٦-٨). ويقول في آية أخرى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ (التين:٤). كما تتجلى هذه المظاهر بصورة جلية في الكون الذي يشكّل لوحات فنية أخّاذة، بكل ما فيه من تناسق وروعة وجمال، ومصدراً طبيعياً ساحراً للإلهام الفني والجمالي وتربية الحس والذوق والمشاعر وتهذيبها، يقول تعالى: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ﴾ (النمل:٦٠). ومثل هذه

(١) ابن نبي، شروط النهضة، ص ١٤٣.

النصوص تبرز قيمة الجمال، وتدعونا إلى التنعم بهذه النعم العظيمة والتأمل في قدرة الله تعالى من خلالها.

وتطبيع الإنسان على ضرورة البحث عن الجمال والتحلي به وتذوقه والتنعم به يربط المتعة الروحية والمادية بالحاجة الإنسانية، ويجعل الجميل يتضمن بالضرورة النافع ولا يتناقض معه، يقول تعالى: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (الرعد:٤)، ويقول تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾ (النحل:٦).. آيات رائعة تكشف عن العلاقة الوثيقة بين المنفعة والجمال.. ويقول تعالى هادياً إلى تذوق جمال النعمة المرتبطة بمنفعة الحمد: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ (الكهف:٣٩)

وتنمية الإحساس الجمالي في حد ذاته لدى الإنسان المؤمن هو تنمية للملكات والطاقات، التي أنعم الله تعالى بها عليه، وفي استخدام هذه الملكات سبلاً للاستمتاع بما خلق الله في الكون والإنسان من آيات الزينة والجمال، وبالتالي شكره تعالى على نعمة خلقه لها. فالمسلم لن يستطيع أداء فريضة الشكر لله على نعمة الجمال إلا إذا عرفها واستمتع بها، من خلال التأمل والتذوق والحرص على منهاج الله، بعبادته من خلال

ما يحبه ويرضاه، الأمر الذي ينعكس على شخصية الإنسان وسلوكياته. وأول شروط تذوق الجمال هو تحقق البعد الأخلاقي، لأن تصور الإسلام عن الجمال يقوم على المبدأ الأخلاقي، والقيمة الجمالية لا تنفصل عن القيم الأخلاقية.

وتتضح أهمية القيم الجمالية وارتباطها بالأخلاق، وتنمية الذوق لدى الإنسان في السيرة النبوية، فقد كان ﷺ تجسيداً حياً ومثلاً إنسانياً راقياً في الأناقة والجمال وسمو الذوق، في أفعاله وأقواله وعلاقاته. فحين يقول ﷺ مثبتاً القاعدة الجمالية العامة في الإسلام: «**إِنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ**»[1]، فإن ذلك ينسحب على الجمال الظاهر والجمال الباطن، ويقول ﷺ: «**اللَّهُمَّ أَحْسَنْتَ خَلْقِي فَأَحْسِنْ خُلُقِي**»[2]. إنه كان يعرف ربه بصفات الجمال، ويدرك ضرورة التعرف إلى حقيقة الجمال الإلهي وتجلياته في الكون والنفس، وتعويد النفس على رؤيته والانغماس فيه وتذوق لذته. فنجده ﷺ يتعرف إليه تعالى بالأفعال والأقوال والأخلاق الجميلة، ويُجَمِّل لسانه بالصدق، وقلبه بالإخلاص والمحبة والإنابة والتوكل، وجوارحه بالطاعة، وبدنه بالطهارة، ويحث على التحلي بمظهر وسلوكيات الجمال من منطلق جمال الله تعالى الذي يحب الجمال.

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب الإيمان.

(٢) أخرجه الإمام أحمد.

من هنا كانت سيرته ﷺ تجسيداً لجمال المظهر وجمال الجوهر ونظافتهما. وكان الاقتداء به ﷺ تربية في الجمال والأخلاق والنظافة، لأن نظافة الشكل مدعاة لنظافة الضمير، ونظافة الفرد مدعاة لنظافة المجتمع. وبذلك يتحقق بعد تربوي إسلامي عظيم متمثل في طهارة المجتمع المسلم طهارة معنوية من الفواحش والمعاصي والذنوب والآثام، فترتفع النفس المسلمة من رجس الفوضى وأوحال الوحشية إلى نظافة الأخلاق وتهذيب السلوك وجماليته. ومن ثم يتم تطهير الحياة الاجتماعية عامة حتى تصبح التربية شاملة للنفس والعقل والجسم بتطهير النية والعمل والسلوك وتجميلها.

ولعل بعدنا في واقعنا المعاصر عن هذا المفهوم الحقيقي للجمال وتجلياته ينبع من عدم تمثلنا للارتباط بين الجمال والأخلاق والنظافة في ديننا، وعدم ترسيخها في الفرد والمجتمع بوصفها قيماً مركزية تضبط السلوك، وتوجه الممارسة، ومن ضمنها الدعاء. من هنا نجد ما للدعاء من فاعلية كبيرة في تنمية الذوق الجمالي، وإخصاب النفس بتجليات الجمال الإلهي، لأن البث الروحي الذي يخلقه الدعاء يفيض بعبقات الحب والمتعة، والشعور بالرضى والسعادة، فيرتقي الإنسان في درجات من الجمال والصفاء النفسي، التي تنعكس على شخصيته وسلوكه.

وهذه الرؤية الشمولية للجمال ومظاهره وتجلياته التي نلمسها في معاني الدعاء القرآني والحديثي ومضامينه الداخلية، تنسحب على بنيته الفنية الخارجية أيضاً، وتحمل رسائل إيحائية متعددة بتعدد الداعي، ودرجات تمثله لتناسق ووحدة الشكل والمعنى. وبذلك يقدم النص الدُّعائي جماليته في ضوء انفتاحه على عالم لا متناهٍ من الدلالات وأشكالها التعبيرية، القادرة على احتواء انفعالات الداعي المتباينة، وتوجيه فكره إلى ما فيه صلاح نفسه واطمئنانها. وبما أن الدعاء حركات لفظية مباشرة تسعى للانتظام في النفس بما تحمله من دلالات وإيحاءات، فإنها تظل مشدودة في وظيفتها إلى الرؤية الكلية المتمثلة في ألفاظ الدعاء وتراكيب جمله وصوره البلاغية، التي تموج بشحنات عاطفية عالية تقوم على الابتهال والاستعطاف، وتعبر عن الوظيفة النفسية والحاجة الاجتماعية.

والعلاقة الفنية بين أسلوب نص الدعاء ودلالاته وأهدافه تشهد بجمالية السبك ورونقه، وبلاغته الإعجازية التي بمقدار ما تمتع الداعي جمالياً، تحقق لديه نَشْوة عاطفية عالية، وتأملاً فكرياً عريضاً. وهذه نماذج من الأدعية التي وردت في القرآن الكريم وفي السنة النبوية تكشف عن فاعليتها في النفس، سواء من خلال إشاعتها للجمال، أو من خلال جماليتها في حد ذاتها:

١- النصوص القرآنية:

يختص القرآن الكريم بصفات جمالية وبلاغية معجزة متنوعة في جميع آياته وسورة[1]، من مثل الجمع والإيجاز والتناسق وغير ذلك مما لا يُعدّ حصره.. ونصوص الدعاء من الآيات القرآنية، التي يمكن استنباط بعض هذه الصفات منها، ورصد بعض سماتها في نماذج تمثلها، وتقوم شاهدة عليها كثيرة، من ذلك هذه النماذج:

-﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾، هذا الدعاء يتردد في حياة المسلم، في يومه ونهاره، حيث لا صلاة إلا بفاتحة الكتاب المتضمنة له، فبعد الإقرار بالانقطاع المطلق لله جل وعلا بقول: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، يأتي الدعاء بطلب الهداية في جملة واحدة قصيرة، تثير ملامح الجمال بتركيبها الجامع الموجز. وهي جملة فعلية تفيد عدم الثبات والاستقرار، لأن الإنسان بطبعه مجبول على الخطأ والنسيان، والانحراف عن الطريق القويم وعدم الثبات عليه، من هنا جاء طلب الهداية إلى الصراط المستقيم، لتنبيه القارئ الداعي إلى المزالق والأخطاء التي تحف طريقه، فيحاول الرجوع عنها وعدم الوقوع فيها، بتجدد الدعوة اليومية في كل صلاة ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾.

---

(١) لا أدعي في هذا المجال الإحاطة بهذه الصفات أو بجزء منها، لأن لذلك مصنفاته وعلماؤه، وإنما هي تأملات تسعى لكسب أجر المجتهد.

ونستطيع القول: بأن هذا الدعاء يعبر عن أقصى درجات الإيجاز والاختصار التي يُدلّ بها بالألفاظ القليلة عن المعاني الكثيرة، ويمثل مجموعة كبيرة من الأدعية القرآنية في مثل قوله تعالى: ﴿ رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَتَوَفَّنَا مُسۡلِمِينَ ﴾ (الأعراف:١٢٦)، فجملة ﴿ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا ﴾ من العبارات الموجزة البليغة التي تختصر كلاماً كثيراً في مجالات الصبر المتعددة، وتدل على المبالغة في طلبه، كما تشير إلى صورة جمالية فيها استعارة تمزج اللفظ بالكثير من المعاني.

- يقول تعالى في دعاء جامع: ﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذۡنَآ إِن نَّسِينَآ أَوۡ أَخۡطَأۡنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تَحۡمِلۡ عَلَيۡنَآ إِصۡرٗا كَمَا حَمَلۡتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلۡنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ وَٱعۡفُ عَنَّا وَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَآۚ أَنتَ مَوۡلَىٰنَا فَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ (البقرة:٢٨٦). وفي شرح الآية قال الطبراني وابن حبان، عن عطاء عن عبيد بن عمير عن ابن عباس، رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ اللَّهَ وَضَعَ عَنْ أُمَّتِي الْخَطَأَ وَالنِّسْيَانَ وَمَا اسْتُكْرِهُوا عَلَيْهِ**»[1] فقال الله جل ثناؤه: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ ﴾ (الحج:٧٨)، وقال: ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ ﴾ (البقرة:١٨٥)، وقال: ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا

(١) أخرجه ابن ماجه، كتاب الطلاق .

ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ (التغابن:١٦). وهذا مجال واسع من مجالات التَّيْسِير فِي الدِّين فيه من الفوائد الكثيرة والصور البديعة ما يجعله يصل إلى النفس، ويمنحها الأمن والاطمئنان. ويدخل في هذا الباب أدعية أخرى جامعة تُحمل على المجاز والاستعارة، وتقدم صوراً جمالية تتمكن من النفس وتتغلغل فيها، لما تشعه من مقاصد دلالية عميقة الإبلاغ والتأثير والإثارة، كما في قوله تعالى: ﴿رَبِّ ٱشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِيٓ أَمْرِي ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِي﴾ (طه:٢٥-٢٨).

ومن الأدعية الجامعة التي تمثل ما ينطوي عليه الدعاء القرآني من أسلوب في منتهى الجمال والبهاء، وما يحتويه من بلاغة لفظية وصوتية تتناغم في النفس الإنسانية، وتعبر عن قيمها، وما يعتريها من أحوال وتحولات، قوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ (البقرة:٢٠١). ولا يخفى ما في الآية من تجانس تام بين حسنة الدنيا وحسنة الآخرة، ومن مطابقة وتقابل بين الدنيا والآخرة تترك في نفس الداعي أثراً بليغاً، وتثير لديه حافزاً لبلوغ دلالات ومقاصد هذه الحسنة.

وأمثلة ذلك كثيرة، منها التجانس المختلف في الوزن والتركيب الذي يضفي على الدعاء أنواعاً من اللطف والجمال تتردد في النفس في مثل قوله تعالى: ﴿رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾ (المؤمنون:٢٩)، وقوله

عز وجل في دعاء ينضح بالتفاؤل والابتهال والتضرع، وتنساب عباراته المركزة انسياباً عميقاً في النفس: ﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ (المؤمنون:١٠٩). فبالإضافة إلى التجانس غير التام بين ﴿وَٱرْحَمْنَا﴾ و﴿ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ توافقت الفواصل وتوحدت في حرف نون الجماعة الممتد في الزمن، لاكتساب دلالات الوحدة والانتماء للجماعة، وترددت لتستقر في النفس، وتؤثر فيها.

ونختم هذه الجملة من النماذج بهذا الدعاء الجامع الذي يختصر العلاقة بين الله تعالى وعبده، علاقة التوبة والاستغفار والافتقار والرجاء والرحمة، في قوله تعالى على لسان يونس، عليه السلام: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ (الأنبياء:٨٧).

وكثيرة هي الأدعية القرآنية، التي تجمع بين عمق المعاني وجلالها ورونق بيانها ودقته وبين انتظام ألفاظها وأصواتها وتناسقها الدالة على المعاني الواسعة والمتنوعة.

٢- النصوص الحديثية:

إن رسول الله ﷺ «خير من حقق في نفسه، وفي الذين من حوله حياة الإنسان الكامل»[1]، ولذلك كان في دعائه، كما في كل أعماله

(١) محمد الغزالي، فن الذكر والدعاء، دار الاعتصام، ص ٢١.

وعباداته، مثالاً للافتقار إلى الله، والامتثال والاستسلام له عز وجل، ولطلب التوبة والمغفرة والعون منه. وتتوفر نصوص دعائه على جملة من الصفات والخصائص الجمالية والإبداعية التي لا يمكن أن تتوفر لغيره ﷺ[1]، يمكن التعرض لقطرات من فيض بيانها، وتكامل معانيها وألفاظها. وقد اختصر ﷺ لجمالية نصوصه صفة ضمّنها حديثه، فيما رواه سعيد بن المسيب عن أبي هريرة، رضي الله عنه، أنه قال: «بُعِثْتُ بِجَوَامِعِ الْكَلِمِ، وَنُصِرْتُ بِالرُّعْبِ، فَبَيْنَا أَنَا نَائِمٌ أُتِيتُ بِمَفَاتِيحِ خَزَائِنِ الأَرْضِ فَوُضِعَتْ فِي يَدِي» [2].

ورغم أن عدداً من العلماء ذهبوا إلى اعتبار معنى «جَوَامِعِ الْكَلِمِ» هو القرآن، إلا أنه أيضاً صفة بارزة من صفات حديثه ﷺ، فقد «مُكّن من الألفاظ المختصرة التي تدل على المعاني الغزيرة، ومن ينعم النظر في كلامه ﷺ يجد جل كلماته جارية هذا المجرى» [3]، الأمر الذي يدل على

---

(١) يقول الجاحظ في هذا المجال: «لم يسمع الناس بكلام قط أعمّ نفعاً، ولا أقصد لفظاً، ولا أعدل وزناً، ولا أجمل مذهباً، ولا أكرم مطلباً، ولا أحسن موقعاً، ولا أسهل مخرجاً، ولا أفصح معنى، ولا أبين فحوى من كلامه ﷺ» انظر البيان والتبيين، ٢/١٧.

(٢) أخرجه البخاري، كتاب الجهاد والسير.

(٣) عبد الرحمن بودرع، جوامع الكلم في البيان النبوي، نحو دراسة لغوية لبلاغة الجمع والإيجاز في الحديث النبوي، ط١ (تطوان: مكتبة سلمى الثقافية، ٢٠٠٥م) ص١٢.

إعجابه بجوامع الكلم، واختياره على غيره من الذكر[1]، كما كان يعجبه من الدعاء جوامعه، فعَنْ عَائِشَةَ، رَضِي اللَّه عَنْهَا، قَالَتْ: « كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَسْتَحِبُّ الْجَوَامِعَ مِنَ الدُّعَاءِ وَيَدَعُ مَا سِوَى ذَلِكَ» [2]؛ وعن عائشة، رضي الله عنها، أيضاً أن النبي ﷺ قال لها: «**عَلَيْكِ بِالْكَوَامِلِ... قُولِي: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ مِنَ الْخَيْرِ كُلِّهِ، عَاجِلِهِ وَآجِلِهِ، مَا عَلِمْتُ مِنْهُ وَمَا لَمْ أَعْلَمْ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الشَّرِّ كُلِّهِ، عَاجِلِهِ وَآجِلِهِ، مَا عَلِمْتُ مِنْهُ وَمَا لَمْ أَعْلَمْ، وَأَسْأَلُكَ الْجَنَّةَ وَمَا قَرَّبَ إِلَيْهَا مِنْ قَوْلٍ أَوْ عَمَلٍ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ النَّارِ وَمَا قَرَّبَ إِلَيْهَا مِنْ قَوْلٍ أَوْ عَمَلٍ، وَأَسْأَلُكَ مِنَ الْخَيْرِ مَا سَأَلَكَ عَبْدُكَ وَرَسُولُكَ مُحَمَّدٌ ﷺ، وَأَسْتَعِيذُكَ مِمَّا اسْتَعَاذَكَ مِنْهُ عَبْدُكَ وَرَسُولُكَ مُحَمَّدٌ ﷺ، وَأَسْأَلُكَ مَا قَضَيْتَ لِي مِنْ أَمْرٍ أَنْ تَجْعَلَ عَاقِبَتَهُ رَشَدًا**»[3] .

ومن نماذج جوامع كلمه في الدعاء قوله ﷺ: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِكَ تَهْدِي بِهَا قَلْبِي، وَتَجْمَعُ بِهَا أَمْرِي، وَتَلُمُّ بِهَا شَعَثِي، وَتُصْلِحُ بِهَا غَائِبِي، وَتَرْفَعُ بِهَا شَاهِدِي، وَتُزَكِّي بِهَا عَمَلِي، وَتُلْهِمُنِي بِهَا**

---

(١) المرجع السابق، ص ١٣.

(٢) أخرجه أبو داود .

(٣) أخرجه الإمام احمد.

رُشْدِي، وَتَرُدُّ بِهَا أُلْفَتِي وَتَعْصِمُنِي بِهَا مِنْ كُلِّ سُوءٍ»[1]. فطلب الرحمة هنا يأتي بجمل قصيرة مركزة، ليشمل كل مناحي الحياة الروحية والمادية في صور واقعية ومجازية، بسيطة وعميقة، تتردد ملامحها في النفس، حيناً بعد حين، مع كل فعل مضارع في الدعاء، وتؤكد اقتناع الداعي بسعة رحمة الله مع كل تكرار لـ«ها».

وللشيخ الغزالي رحمه الله لفتة لطيفة في سمة التكرار التي تنسحب على معظم دعائه ﷺ يقول فيها: «إن ألفاظ اللغة حين تعجز عن ملاحقة هذا الجيشان المنساب في كل دعوة تجعل الرسول المنيب المتعبد يلجأ إلى التكرار في العبارة الواحدة لينفس عما استكنّ في صدره من روعة ومحبة وإجلال. إنه في ظاهره ترداد للفظ واحد، وهو في باطنه تعبير عن معان متجددة من الولاء والهيام»[2].

وبالإضافة إلى هذه المعاني، نجد في تكراره ﷺ استمتاعاً وتعظيماً، استمتاعاً بترديد الحمد والتنعم بما يشعه من رضى وقناعة وطمأنينة، وتعظيماً بتكرار اسم من أسماء الله الحسنى وما يشعه من درجات القرب والمعية والمصاحبة. وفي هذا المجال نورد نموذجاً رائعاً تتكرر فيه ألفاظ معينة: «اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ، أَنْتَ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ، وَلَكَ الْحَمْدُ

(١) أخرجه الترمذي،كتاب الدعوات، وقال: هَذَا حَدِيثٌ غَرِيبٌ.

(٢) محمد الغزالي، فن الذكر والدعاء، ص ٢١.

أَنْتَ قَيَّامُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ، وَلَكَ الْحَمْدُ أَنْتَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ، أَنْتَ الْحَقُّ، وَوَعْدُكَ الْحَقُّ، وَقَوْلُكَ الْحَقُّ، وَلِقَاؤُكَ حَقٌّ، وَالْجَنَّةُ حَقٌّ، وَالنَّارُ حَقٌّ، وَالسَّاعَةُ حَقٌّ، اللَّهُمَّ لَكَ أَسْلَمْتُ، وَبِكَ آمَنْتُ، وَعَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ، وَإِلَيْكَ أَنَبْتُ، وَبِكَ خَاصَمْتُ، وَإِلَيْكَ حَاكَمْتُ، فَاغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ وَأَخَّرْتُ وَأَسْرَرْتُ وَأَعْلَنْتُ، أَنْتَ إِلَهِي لا إِلَهَ إِلا أَنْتَ»[1].

ولا شك أن قراءة هذا الدعاء في ساعات الليل البهيم تحمل معاني كثيرة، فالسماء تظهر في الليل بكل عظمتها وبهائها، والنجوم تومض بهدوء وبكل جمال، وتنساب المعاني إلى القلب، الحي الذاكر، وتدخل الأرضُ في تناغم مع السماء في هذه الساعات، ويرتفع الحمد لله تعالى الذي خلق هذه السموات والأرض؛ ارتباط في جوف الليل بالله عز وجل خالق الكون يسكب السكينة في أعماق الداعي، ويضفي ملامح الجمال والجلال في كل ما يحيط به.

وفي دعاء ينضح بالجمال والروعة يقول ﷺ يعرض استسلامه وتسليم كل أمره لله تعالى قبل نومه: «اللَّهُمَّ أَسْلَمْتُ نَفْسِي إِلَيْكَ، وَوَجَّهْتُ وَجْهِي إِلَيْكَ، وَفَوَّضْتُ أَمْرِي إِلَيْكَ، وَأَلْجَأْتُ ظَهْرِي إِلَيْكَ، رَغْبَةً وَرَهْبَةً إِلَيْكَ، لا مَلْجَأَ وَلا مَنْجَا مِنْكَ إِلا إِلَيْكَ، آمَنْتُ بِكِتَابِكَ

(١) أخرجه مسلم،كتاب صلاة المسافرين.

الَّذِي أَنْزَلْتَ، وَبِنَبِيِّكَ الَّذِي أَرْسَلْتَ»[1]. حروف تبرز تناسبها لبعضها تناسباً طبيعياً في الهمس والجهر والشدة واللين والتفخيم والترقيق مما يشكل أنغاماً متناسقة متناسبة لطبيعة الاستسلام لله، كما أن الكلمات ونظمها والتئامها مع بعضها بعضاً له الأثر الكبير في نفس الداعي، بما تحتويه من تفريغ لشحنات التعب والحزن ومختلف الهموم والمشكلات التي تراكمت طيلة اليوم، وتبعث على الطمأنينة والسلام، وتُلجئ إلى التوكل على الله تعالى في كل أمر من الأمور.

وترديد هذا الدعاء كل ليلة يكشف عن وعيه ﷺ أن إغماضة عينيه عن الدنيا قد تكون الإغماضة الأخيرة، لذا يجب ألا يتمدد على فراشه غافلاً، بل مدركاً واعياً باستسلامه لله تعالى. وما أن يقوم من النوم حتى يجدد استسلامه لله مرة أخرى، وبذلك يبدأ ﷺ يوماً آخر من حياته بهذا الاستسلام العميق لله تعالى وتفويض شأنه إليه: **«الْحَمْدُ للَّه الَّذي أَحْيَانَا بَعْدَ مَا أَمَاتَنَا وَإِلَيْهِ النُّشُورُ»**[2]. ويقول ﷺ: **«أَصْبَحْنَا وَأَصْبَحَ الْمُلْكُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ خَيْرَ هَذَا الْيَوْمِ، فَتْحَهُ، وَنَصْرَهُ، وَنُورَهُ، وَبَرَكَتَهُ، وَهُدَاهُ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا فِيهِ وَشَرِّ مَا بَعْدَهُ»**[3].

---

(١) أخرجه البخاري،كتاب الدعوات.

(٢) أخرجه البخاري، كتاب الدعوات.

(٣) أخرجه أبو داود، كتاب الأدب .

أدعية مدركة لابتلاءات الحياة وهمومها يزيدها التناسق والتناغم روعة وجمالاً وتأثيراً.

وكَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُعَوِّذُ الْحَسَنَ وَالْحُسَيْنَ وَيَقُولُ: «... **أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّةِ، مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ وَهَامَّةٍ، وَمِنْ كُلِّ عَيْنٍ لامَّةٍ**» [1]، والدعاء جاء في جمل قصيرة مركزة جامعة للتعوذ من الشر المتمثل في مختلف المخلوقات المؤذية، مزاوجة بين كلماتها الأخيرة في الوزن والسجع والتجنيس.

وينحو هذا الدعاء المعنى نفسه، فعن أبي هريرة، رضي الله عنه، أن رسول الله كان يقول في سجوده: «**اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي كُلَّهُ، دِقَّهُ وَجِلَّهُ، وَأَوَّلَهُ وَآخِرَهُ، وَعَلانِيَتَهُ وَسِرَّهُ**»[2] هنا بلاغة البديع من سجع وتجنيس وطباق بين كله ودقه وجله وبين آخره وسره، وطباق بين علانيته وسرّه ما يتضافر مع الصور الأدبية، ويضفي على الدعاء جمالية دلالية ولفظية وصوتية ما يفصح عن رغبته ﷺ في تطهير النفس من كل ما يعلق بها من ذنب، كيفما كان حجمه أو طبيعته أو توقيته.

ويدعونا الحبيب ﷺ إلى تلمس الجمال حتى في أحلك الأوقات، التي قد نعيشها في حياتنا اليومية مع الابتلاءات والمصائب والأحزان، وذلك

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء.

(٢) أخرجه مسلم،كتاب الصلاة .

من خلال الارتقاء بالنفس وجعلها تسعى لتذويب همومها ومشكلاتها بالانغماس في الجمال وتشربه، عبر الشعور بمعية الله وقربه، والإحساس بأن كل ما نعيشه هو دعوة مفتوحة للبحث عن ذنوبنا والاستغفار منها، أو هو رفع مستمر للدرجات، وتوفير فضاءات أكثر جمالاً وروعة في جنات النعيم، استمع إليه ﷺ في هديه للمسلمين لكل هذا في مثل قوله: **«مَا مِنْ مُسْلِمٍ تُصِيبُهُ مُصِيبَةٌ فَيَقُولُ مَا أَمَرَهُ اللَّهُ: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾، اللَّهُمَّ أْجُرْنِي فِي مُصِيبَتِي، وَأَخْلِفْ لِي خَيْرًا مِنْهَا، إِلا أَخْلَفَ اللَّهُ لَهُ خَيْرًا مِنْهَا»** (1).

وكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا رَأَى مَا يُحِبُّ قَالَ: **«الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي بِنِعْمَتِهِ تَتِمُّ الصَّالِحَاتُ»**.. وَإِذَا رَأَى مَا يَكْرَهُ قَالَ: **«الْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى كُلِّ حَالٍ»** (2). وهذا تحويل للنعمة أو المصيبة إلى عبادة مفعمة بالإحساس الجمالي .

---

(١) أخرجه مسلم،كتاب الجنائز.

(٢) أخرجه ابن ماجه،كتاب الأدب.

الخاتمة

يقول تعالى: ﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُا بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ﴾ (الفرقان:٧٧)، كنت كلما قرأت هذه الآية الكريمة ينتابني نوع من الرهبة الممزوجة مع الشعور بالتقصير، وعدم إيلاء موضوع بحجم الدعاء وقيمته عند الله عز وجل الاهتمامَ الكافي في مساحة حياتنا الفانية، بوصفه زاداً يطوي المسافات بين العبد وربه، ويجعله يلقاه وهو متزود بما يوصله إلى نهاية رحلته بأمان، ليخلد في جنات الرحمن، وخاصة حين وعيت أن الدعاء هنا جاء بمعنى العبادة، يقول ابن كثير، رحمه الله، في شرح الآية: «أيْ لا يُبَالِي وَلا يَكْتَرِث بِكُمْ إذَا لَمْ تَعْبُدُوهُ، فَإِنَّهُ إِنَّمَا خَلَقَ الْخَلْق لِيَعْبُدُوهُ وَيُوَحِّدُوهُ وَيُسَبِّحُوهُ بُكْرَة وَأَصِيلاً».

من هنا كان من واجبي القيام بالتذكير بقيمة الدعاء ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (الذاريات:٥٥) عسى أن نوليه مكانته، ونخفف من وزن أجسادنا التثاقلية التي تخضع لجاذبية الأرض وعوامل الميل مع الشهوات والهوى والغفلة وغيرها، يقول تعالى مبيناً طبيعة الجسد الإنساني: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ (التوبة:٣٨)؛ وندخل في زمرة المتقين، يقول تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ

﴿تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ﴾ (الاعراف:٢٠١)؛ ونتذكر في كل دعاء كرم الله تعالى اللامائي للإنسان، وما يسبغ عليه من نعمه وإحسانه وفضله، التي يلمسها كل ثانية من حياته، من مثل نعمة البصر والسمع وغيرهما مما لا يُعد ولا يُحصى من النعم، التي لا غنى له عنها، ولا يطلبها، وإنما هي من كرم الله ونعمه.

وإذا كان ربُ العزة أكرم الإنسان بخطابه، وبحواره المستمر المتتالي كلما تلا القرآن وقرأه قراءة متبصرة، واستحق عن يقين اصطفاء الله تعالى له من دون سائر المخلوقات لتعمير الأرض والاستخلاف فيها، يقول تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرًا كَثِيرًا ۝ وَسَبِّحُوهُ بُكۡرَةً وَأَصِيلًا ۝ هُوَ ٱلَّذِي يُصَلِّي عَلَيۡكُمۡ وَمَلَـٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخۡرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ وَكَانَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَحِيمًا﴾ (الأحزاب:٤١-٤٣)، فإنه شرّفه بتيسير الدعاء والحمد والثناء عليه تعالى، وأدخله في مناجاة نورانية معه، يحاسب فيها نفسه، ويعرف مقامه وتقصيره في حقه سبحانه، ويسارع إلى التوبة والاستغفار والبكاء من خشيته تعالى، ويدعوه تضرعاً وخفية بكلمات لا تصل إلى مقام عظمة وجلال الحق تعالى، الذي وصفه النبي الأمين ﷺ بقوله: «... **لا أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ، أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ**»[١].

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب الصلاة .

هذا الشرف، يجعله يعيش حياة الطمأنينة والأمن والسلام، ذلك أن أساس الحياة الطيبة هي التواصل مع الله والقرب منه، والإيمان به، والطمع في ثوابه، والخشية من غضبه وعقابه، يقول تعالى : ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَایَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشۡقَىٰ ۝١٢٣ وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةٗ ضَنكٗا وَنَحۡشُرُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَعۡمَىٰ﴾ (طه:١٢٣-١٢٤). والضنك هو الضيق في كل شيء، وهو لازم لمن أعرض عن ذكر الله ودعائه، والإعراض يبعد القلب عن الهدوء، والنفس عن الطمأنينة، ويجعل الإنسان يعيش الانفلات من الرقابة الذاتية فلا كابح لشهواته ورغباته ونزواته، فيكون همّه إشباعها بأيّ طريق أمكن دون النظر إلى الآثار الوخيمة المترتبة على ذلك في النفس أو في المجتمع، أما إذا لازم الذكر والدعاء فإن أثره ينسحب على حياته، يقول تعالى : ﴿أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ﴾ (الرعد:٢٨).

واطمئنان القلب يحقق التوازن داخل النفس الإنسانية، وهو أحد أعمدة الصحة النفسية التي تسهم مساهمة فعّالة في ارتقاء الإنسان نحو مدارج الكمال والمسيرة الصالحة، لذا يُعد الدعاء من أعظم وسائل الإصلاح النافعة، وهو السلاح المعطل عند الكثير، وقد فرطوا فيه وخسروه، إما جهلاً أو قلة يقين بأثره. يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَٱلۡعَصۡرِ ۝١ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ﴾ (العصر:١-٣).

فالفرد والمجتمع في خسران وقلق يلحقان جميع مقومات الحياة وميادينها، باستثناء من تكون المفاهيم والقيم الدينية الصحيحة هي الحاكمة على مسيرته وحركته؛ حيث تحرر تلك القيم الإنسان والمجتمع معاً من جميع العبوديات الفكرية والاجتماعية والتربوية، وتزرع في الضمير وخلجات النفس وفي الواقع الاستقرار والطمأنينة التي هي أساس الصحة النفسية والخلقية، وتدفع إلى العمل الإيجابي البناء نحو إصلاح وتغيير النفس والمجتمع، وإلى الإحساس الدائم بمعية الله والفقر إليه الذي يحققهما ملازمة الدعاء، إلا أن هذا المفهوم والإحساس بالفقر المطلق إلى الله لا يقف عند الحد التعبدي، بل يجب أن تترشح منه آثار ومردودات أخلاقية، تسهم في تنـزيلها إلى أرض الواقع سلوكاً وممارسة ومواقف.

يقول النورسي: «لقد زيَّن الله سبحانه هذا الإنسان الصغير بحواس ومشاعر كثيرة جداً، وحمَّله بجوارح وأجهزة وأعضاء مختلفة عديدة، ليشعره طبقات رحمته الواسعة، ويذيقه أنواع آلائه التي لا تُعد، ويُعرفه أقسام إحساناته التي لا تُحصى، ويُطلعه عبر تلك الأجهزة والأعضاء الكثيرة على أنواع تجلياته التي لا تُحد لألف اسم واسم من أسمائه الحسنى، ويحببها إليه، ويجعله يحسن تقديرها حق قدرها»[1].

---

(١) بديع الزمان سعيد النورسي، الكلمات، ترجمة إحسان قاسم (دار سوزلر، ١٩٩٢م) ص ٧٧٤.

وله أيضاً كلمات لطيفة تدور حول المعاني السابقة فيقول: «أتحسبون أن مهمة حياتكم محصورة في تلبية متطلبات النفس الأمارة بالسوء ورعايتها بوسائل الحضارة إشباعاً لشهوة البطن والفرج؟؟ أم تظنون أن الغاية من درج ما أودع فيكم من لطائف معنوية رقيقة، وآلات وأعضاء حساسة، وجوارح وأجهزة بديعة، ومشاعر وحواس متحسسة، إنما هي لمجرد استعمالها لإشباع حاجات سفلية لرغبات النفس الدنيئة في هذه الحياة الفانية؟؟ » ويجيب: «كلا، بل إن خلق تلك اللطائف والحواس والمشاعر في وجودكم وإدراجها في فطرتكم إنما يستند إلى أساسين اثنين: أولهما أن تجعلكم تستشعرون بالشكر تجاه نوع من أنواع النعم التي أسبغها عليكم المنعم سبحانه. أي عليكم الشعور بها والقيام بشكره تعالى وعبادته. وثانيهما أن تجعلكم تعرفون أقسام تجليات الأسماء الحسنى التي تعمُّ الوجود كله، معرفتها وتذوقها فرداً فرداً. أي عليكم الإيمان بتلك الأسماء ومعرفتها معرفة ذوقية خالصة. وعلى هذين الأساسين تنمو الكمالات الإنسانية وبهما يغدو الإنسان إنساناً حقاً»[1].

ولتربية المسلم على كل هذه المعاني، وإعادة بناء شخصيته في ضوئها، يجب تزويده بالنماذج الفاعلة والإيجابية التي تنتمي إلى حضارته وأمته، من أجل حمايته من الازدواجية أو الانفصام في التكوين، قبل الانفتاح على أي

---

(١) بديع الزمان النورسي، الكلمات، المرجع السابق، ص ١٣٦-١٣٧.

نماذج أخرى. وأكمل نموذج يمكن التزود منه هو رسول الله ﷺ، بتمثل سيرته النبوية العطرة، يقول تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (آل عمران: ٣١).

وحين نستوعب حقيقة الإيمان والقرب منه تعالى، وارتباط التصور العقدي والأخلاق بالحياة والممارسة، والتوازن بين متطلبات الجسد وأشواق الروح، نزداد يقيناً بعظمة الرسالة الحضارية التي نملكها، وبضرورة تصديرها للبشرية لإنقاذها من كل ما تعيشه من أزمات خانقة، سواء على مستوى التصور أو على مستوى الأخلاق؛ ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ﴾ (الأنبياء:١٠٧)، وجمال وجلال الزاد الذي نتزود منه خلال رحلتنا نحو الخلود.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

الفهرس

وكـــــــلاء التـــوزيـــــع

البلد	اسم الوكيل	رقم الهاتف	عنوانه
قطـــــــــر	دار الثقافـــــــــــــــــــة دار الثقافة «قسم توزيع الكتاب»	٤٦٢٢١٨٢ ٤٤١٣٤٧١	ص.ب: ٨١٥٠ – الدوحة فاكس: ٤٤٣٦٨٠٠-بجوار سوق الجبر
البحـــــرين	مكتبـــــــــــــــــة الآداب	٢٣١٠٦٢ ٢١٠٧٦٨(المنامة) ٦٨١٢٤٣ (مدينة عيسى)	ص.ب: ٢٨٧ – البحرين فاكس: ٢١٠٧٦٦
الكويـــــــت	مكتبة دار المنار الإســـلامية	٢٦١٥٠٤٥	ص.ب: ٤٣٠٩٩ حولي شارع المثنى رمز بريدي: ٢٣٠٤٥ فاكس: ٢٦٣٦٨٥٤
سلطنة عمان	مكتبـــــة علـــــوم القـــــرآن	٧٨٣٥٦٧٧	ص.ب: ١٩٦٠ روي ١١٢ فاكس: ٧٨٣٥٦٨
الأردن	شركة وكالة التوزيع الأردنية	٥٣٥٨٨٥٥	ص.ب: ٣٣٧١ – عمان ١١١٨١ فاكس: ٥٣٣٧٧٣٣
الـــــــيمن	مجموعـــــة الجيـــــل الجديــــــد	٧١٣٦٣-٧٨٠٤٠ ٧٥٨١١- ٢٧٠٣٨	ص.ب: ٥٤٤- صنعاء فاكس: ٢١٣١٦٣
الســــــودان	دار الغـــــد للنشـــــر والتوزيــــع	٠١٢٣٥٠٦٩٥	الخرطوم – السودان فاكس: ٧٧٩٣٤١
مصـــــــــر	دار السلام للطباعـــة والنشـــر والتوزيـــــــــع والترجمـــــــــة	٢٧٤١٥٧٨ ٢٧٠٤٢٨٠ ٥٩٣٢٨٢٠	ص.ب: ١٦١ غورية ١٢٠ ش الأزهر – القاهرة فاكس: ٢٧٤١٧٥٠
المغـــــــرب	مكتبة منار العرفان للنشر والتوزيع	٧٣٣٣٢٩	نهج موناستير رقم ١٦- الرباط
إنكلتــــــرا	دار الرعايــــــة الإســـــــلامية	(01) 272-5170/ 263-3071	Muslim welfare House, 233. Seven Sisters Road, London N4 2DA. Fax: (071) 2812687 Registered Charity No:271680

ثمن النسخة

الأردن	(٧٠٠)	فلس
الإمارات	(٥)	دراهم
البحرين	(٥٠٠)	فلس
تونس	دينار واحد	
السعودية	(٥)	ريالات
السودان	(٤٠)	ديناراً
عمان	(٥٠٠)	بيسة
قطر	(٥)	ريالات
الكويت	(٥٠٠)	فلس
مصر	(٦)	جنيهات
المغرب	(١٠)	دراهم
اليمن	(٤٠)	ريالاً

* الأمريكتان وأوروبا وأستراليا وباقي دول آسيا وأفريقيا: دولار أمريكي ونصف، أو ما يعادله.

مركز البحوث والدراسات

هاتف: ٤٤٤٧٣٠٠

فاكس: ٤٤٤٧٠٢٢

برقياً: الأمة - الدوحة

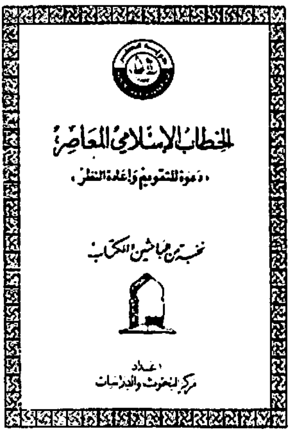
ص.ب: ٨٩٣ - الدوحة - قطر

موقعنا على الإنترنت:
www.islamweb.net

البريد الإلكتروني: E.Mail
M_Dirasat@Islam.gov.qa

الخطاب الإسلامي المعاصر

«دعوة للتقويم وإعادة النظر»



صدر عن:

مركز البحوث والدراسات

في وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية

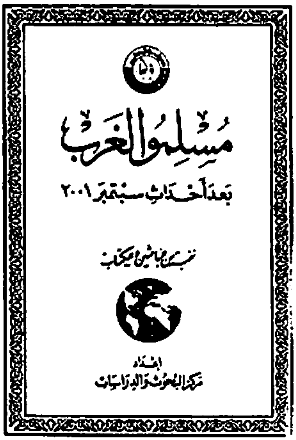
يتناول إحدى الإشكاليات المركبة، إشكالية (الخطاب)، التي تتطلب الكثير من المراجعة والمثاقفة وإعادة النظر، كما أنها تتطلب تخصصات معرفية متعددة تمكن من النظر للمشكلة من الزوايا جميعاً.

والكتاب، (٧٣٢) صفحة، يمثل ساحة للحوار وتبادل الأفكار والمثاقفة الفكرية بين نخبة من الباحثين، من مواقع ثقافية وجغرافية وفكرية متنوعة.

مسلمو الغرب

بعد أحداث سبتمبر ٢٠٠١

يتناول أخطر نوازل العصر.. ويحاول الإسهام الجاد في مجال فتح أبـــواب الحوار، والتعرف على السنن والقوانين الحضارية للسقوط والنهوض.



صدر عن:

مركز البحوث والدراسات

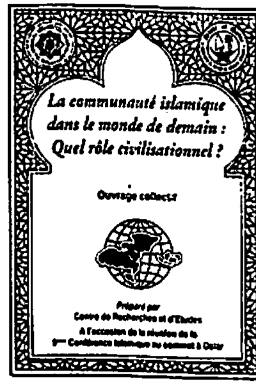
في وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية

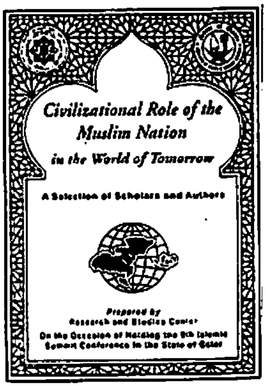
جهد جماعي، ساهم في إعداد مادته نخبة من الباحثين والمفكـــرين، مـــن مواقع ثقافية وجغرافية، ومدارس فكرية ومذهبية ومؤسسية متنوعة؛ إضافة إلى مساهمات غير المسلمين، ومسلمين يعيشون ضمن منظومة الثقافـــات الغربية ومؤسساتها.

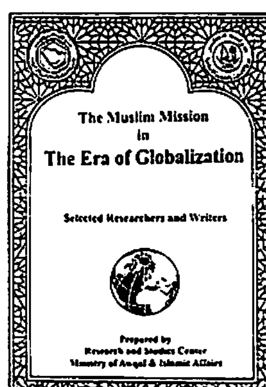
ترجمة

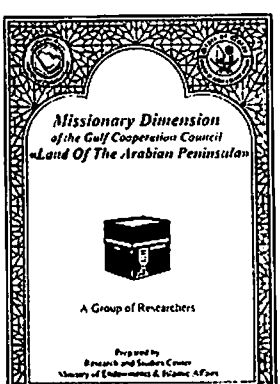
المشروعات الثقافية الجماعية المشتركة

ضمن سلسلة (المشروعات الثقافية الجماعية المشـــتركة) تمـــت ترجمة بعضها إلى اللغات العالمية الحية.









سلسلة :

« المشروعات الثقافية الجماعية المشتركة »

سلسلة دورية تصدر عن مركز البحوث والدراسات، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية ـ قطر



- سلسلة ثقافية جماعية، يساهم فيها نخبة من المفكرين والكتاب.
- تتمحور حول طرح عدد من الموضوعات، التي تعتبر من الإشكاليات المركبة والملفات المفتوحة والقضايا (الدينامية) الحية المتغيرة والمتطورة.
- تحاول الإحاطة بالموضوع المطروح من جوانبه المتعددة، وأحياناً المتباينة، من قبل تخصصات وخبرات متنوعة.
- تحرص على المعالجة الموضوعية المنهجية بعيداً عن الانفعالات الحماسية والأصوات العالية، التي ما تزال تغشى الكثير من أعمالنا الفكرية.
- تؤصل وتؤسس للأعمال الجماعية وبناء القاعدة الثقافية المشتركة.
- تساهم في التدريب على التفكير الاستراتيجي وبناء الرؤية المستقبلية.

صدر منها ستة مشروعات، ترجم بعضها إلى عدد من اللغات الحية